

T
65A

NOT TO CIRCULATE

أبو العتاهية
رائد الزهد في الشعر العربي

- ٤ -

تأليف
أسامة عانوتسي

رسالة مرفوعة الى الدائرة العربية
في الجامعة الاميركية في بيروت لدرجة
ماجستير في الآداب .
بيروت - لبنان -
حزيران سنة ١٩٥٧

المقدمة

كان للزهد في ادب العرب، ولا سيما في الشعر منه، شأن كبير . ذلك ان الزهد نفسه كان ذا شأن في حياتهم . بيد ان الدراسات الحديثة لم تتناول موضوع الزهد كما ينبغي في الشعر بما يستحقه من اهتمام ودراسة، فظل مهملا او كالمهممل . وموضوع هذه الاطروحة، ابو العتاهية، من اعلام ادباء الزهد الذين لم توفهم البحوث حقهم، ولم تعرض الى ادبهم بالدرس العميق . وغرض هذه الاطروحة، قبل كل شيء، ان يكشف عن نزعة الزهد في ادب هذا الشاعر وان يتبين معالمها من خلال شعره .

ولا نزم اننا احطنا - في هذا البحث القصير المتواضع - بكل شيء عن الرجل وزهده . فالواقع، الذي لا نتواضع فيه ولا نجامل، ان في البحث فجوات عديدة . وعزأونا وهذرنا اننا نبهنا الاذهان الى هذا الموضوع الشائك المهمل، ووضعنا لبنة صغيرة قد تحمل سوانا من طلاب الحقيقة وخدامها على ان يوطدوا دعائمها ويقبضوا فوقها بنينا متينا شامخا .

ولا محيص لنا من الاعتراف بان هذا الموضوع ليس فيه من عناصر التشويق شيء كثير . فصبغته الجفاف، وطبيعته السأم بوجه الاجمال . فهو في الزهد، والتنفير من الحياة، والاتعاظ بالموت، وقل ان يطرب احدا صوت الندب والنعي . ولكن الحقيقة اطرب من هذا كله وارفع، واجدر بالاصغاء ولو تعاورتها الاصوات المنكرة، او حفت بها الاجواء القاتمة . ولقد خيل الينا ان في هذا الموضوع حقيقة تفرض قد سيتها ان يكشف عنها وتجلس . ولا يضيرنا ان لا نكون قد بلغنا الغاية، وحققنا الغرض، ما دام رائدنا محاولة الوصول اليه . اما التوفيق فولىه الله . وحسب هذه الصفحات القليلة المتواضعة، ان تكون جندا معبأة لخدمة الحقيقة والادب العربي . والجند لا تسأل وهي تمضي الى المعركة اتظفراهم تهني . وحسبها من فخر، هذا الجهاد الواجب المقدس .

الخلاصة

قلت في مقدمة هذه الأطروحة ان موضوعها قد كان نصيبه الاهمال والصد من الباحثين لغير سبب ، بالرغم من مكانة ابي العتاهية والزهد في الادب العربي .
وابديت بعض اسباب هذه الجفوة التي يبدو لي ان قوامها عامل نفسي يباعد بين الباحثين وبين هذا الموضوع المسرف في الرصانة والجد الى حد الجفاف والى حد اليأس احيانا .
وارتأيت تمهيدا للبحث وتوضيحا ، ان يتناول القسم الاول دراسة العصر الذي عاش فيه ابو العتاهية والذي كانت فيه بذور النزعة الزهدية في احضان تربة منه صالحة ، فما لبثت ان نمت واينعت وآتت اكلها طائفة كبيرة من زهاد التاريخ العربي كابراهيم بن ادهم ، وشقيق البلخي ، ورابعة العدوية والقضيل بن عياض وغيرهم .
وسينت ان حركة الزهد هذه ان هي الا مظهر من مظاهر الردة الروحية التي كانت تعبيراً سلبياً - ان شئت - عن النقمة على تطور العصر جملة ، في الاجتماع كما فسي السياسة والفكر . واسترسلت بعض الشيء في استقصاء عوامل هذا التطور ومظاهره، وهزوت الى ذلك جميعا هذه الردة الروحية . ففي الحياة الاجتماعية التي اعان على تطويرها الفتح والاختلاط بالام الاجنبية المغلوبة ، كان ثمت ما يغري بالزهد من فسق وخلاعة ومجون وترف شره . وفي الحياتين السياسية والفكرية كثير مما نقم عليه الجمهور : المشادات الكلامية وينبوعها الخلاقات الحزبية والسياسية ، ونشوء الفرق الكلامية ، والثورات الداخلية ، والحروب الخارجية المتعددة .

اما في القسم الثاني من البحث فقد ربطت بين نشأة ابي العتاهية ونزعة الزهدية التي استعرضتها بتفصيل في القسم الثالث ، بعد ان التت بين خيوطها المتناثرة ، المتناثرة في شعره الزهدى . ولقد بدا لي حينذاك ان شعره الزهدى يدور في فلكين متميزين : فلك المجتمع والناس اللذين ساء ظنه بهما فرآهما شرا كلهما وهيويا فبسط سواتهما وذمهما . وفلك الحياة والموت حيث يمتلكه الخوف ويستولي عليه عقيدته الخاصة في الفناء ، فيسرف في التشائم ويشتط في القنوط ويصور الحياة اسوأ صورة واقتنها وابعثها

على اليأس ، ويدعو بقوة وحنن الى التخلي منها ، حتى اذا خيل الي ان الصورة عنه قد اتضحت معالمها وبانت قسماؤها ، زهدت لنفسي انني قادر على ان اتمسح كما عادلا منصفا على زهد هذا الرجل الذي تضاربت فيه الاحكام وتباينت الآراء . وفحواه ان الرجل لم يكن في معاشه زاهدا كالزهاد المعروفين ، ولكنه كان زاهدا فنيا . ومثل هذا الشعر الزاهد لا ينبعث دونما احساس داخلي الا وهو يأسه من الحياة ، او قل فهمه الخاص لها . وهل اليأس الا بعض الزهد او الجانب النظري منه ؟ فاذا انتقت عنه صفة الزهد العملي ، فان نزعة الزهد كامنة فيه اصلا . وهذا شعره الكثير في الزهد لا يعقل ان يكون صنعة جميعا . فان صبغة الزهد فيه قوية ، واضحة . ومكانة ابي العتاهية في عالم الزهد انما تركز على هذا الشعر الذي كان يمثل نزعة مضادة لنزعة سائدة في عصره هي نزعة اللهو والمجون . لقد كان للفسق والعبث في عصره شعراء تغنوا بهما واغروا ، ولكن الصلاح والجد لم يقدر لهما غير ابي العتاهية ينشد لحنهما نشيدا قوي النبرات ، مميز الاداء . فهو قد " شعر الزهد " في زمنه ونهج في ذلك نهجا مستحدثا . فقد كان قبله شعر زاهد كثير ، ولكنه جدد في ذلك وابدع ، واتى بما لم يأت به قبله : بسط معاني الزهد وفلسفها وهرضها ، ثم راح يبدى فيها ويعيد بالوان واشكال مختلفة . فهو ان جدير بالدراسة من وجهتين : من الوجهة الخلقية كداعية الى حياة غير الحياة التي كان معاصروه يدعون اليها ويغرمون بها ، ومن الوجهة الفنية كشاعر بارع ، مطبوع يعبر عن هذه الدعوة الجديدة بادب طيب ، سائح .

وحسبت ان اختتامى البحث بمختارات من زهد يات ، تثبت ما ذهب اليه من تصوير لنزعة الى الزهد ويأسه من الحياة ، فكان القسم الاخير من الاطروحة عبارة عن مقتطفات مصنفة من شعره الزاهد ، كان هي فيها ان اضم اطراف هذه النزعة للقارئ ، ما وسعني ذلك عليه يجد فيها بعض الغناء عن ديوانه ، وبعض العون في استكمال صورته في ذهنه .

- الباب الاول -

- :-

ابو العتاهية واحوال عصره

- - - - -

غرض هذه الرسالة كما اشرنا في المقدمة تبين نزعة الزهد في ادب ابي العتاهية من خلال شعره . ولا يتسنى ذلك ما لم نتعرف الى بيئته وعصره ، ونقف على الاجواء التي عاش فيها ونربط بينها وبين نزعة الزهد التي ذاعت في ذلك العصر ، والتي اعتنقها ابو العتاهية وتمثلت في شعره . هذه النزعة التي شكَّ في صدقها قوم ، وآمن بصدقها آخرون .

مجمل الوصف لعصره كلمتان : خير وشر ، وصلاح وفساد . كان خير العصور ، وكان شر العصور . كان عصر الايمان وكان عصر الشك ، كان عصر الصلح وكان عصر الفساق ، كان عصر الارتقاء وكان عصر الانحطاط . وليس يعنيننا من وصف العصر الا الصورة الخاطفة الواضحة نستعين بها على وصف البيئة التي شب فيها شاعرنا وتروع . ولد ابو العتاهية ومات في العهد العباسي الاول ، ورأى ازهى سني الحكم العباسي واخصبها ، واحفلها بالتطورات السياسية والاجتماعية والفكرية . ومرد هذا التطور الى جملة عوامل نذكر منها في الفصل التالي ما كان ذا تأثير واضح في نزعة الزهد .

- الفصل الاول -

عوامل التطور في الحياة العباسية

اهم هذه العوامل على ما بدا لنا اربعة هي :

١ - التناحر العنصرى

٢ - الازدهار الاقتصادى

٣ - الاغراق في الفنون الحضريّة

٤ - التقدم العلمى وتسرب الافكار الفلسفية .

(١) - التناحر العنصرى :

والشعبوية هي الصورة التي تمثل فيها هذا التناحر . ومعنى الشعبوية كما جاء في " لسان العرب " التهمين من شأن العرب والحط من قدرهم " والشعوي هو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلا على غيرهم . " (١) ويرد التسمية قهرا الى كلمة الشعوب في قوله تعالى : " يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ " . (٢) معتمد على ان المقصود بالشعوب بطون العجم ، والقبايل قبائل العرب . (٣) ولم تكن هذه النزعة بارزة في عهد بني امية الذين نعتت دولتهم بصفاء العروبة . ولكنها قويت في حكم بني العباس واشتدت . فقد كان الموالي في الدولة الاموية يسامون الخسف والهوان ، اذنا استثنينا من ذلك عهد عمر بن عبد العزيز الذي حاول نصفه الموالي واخذهم بتعاليم الاسلام ، ولكنه كان يلام ويعارض كلما اتى شيئا من ذلك القبيل بدافع من العصبية المتكئة

(١) لسان العرب (مادة شعبي)

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٣

(٣) ضحى الاسلام ٥٢/١

في صدور الامويين كما حدث يوم ولّى مولى على وادى القرى (١) كانت ايدى النبط منهم
مثلا توسم بالمشراط (٢) ، وكانوا ينفون من واسط والبصرة (٣) ، ولكن الامر تبدل فسي
الدولة العباسية التي قامت على اكتشاف الاعاجم من الغرس وبمساعدهم واستحالت " عجمية
خراسانية " كما وصفها الجاحظ (٤) . واذا هي وقف على العجم والبرامكة (٥) . وأثار
هذا حفيظة العنصر العربي وسخطه فكانت بين العنصرين مفاخرات ومناظرات في الشعر
كثيرة في النثر ، بل حتى في الحديث والفقه اللذين دس فيهما الفريقان .

واتضح هذا الصراع في مقتل ابي مسلم وفي نكبة البرامكة ، ثم في الفتنة بين
الامين والعامون ، وما اعقب ذلك من ثورات واحزاب . والقضاء على ابي مسلم اقرار من
العنصر العربي يتفاهم خطر العنصر الفارسي ونفوذه . وهذا جعفر بن حنظلة يقول لابي
جعفر المنصور بعد ان فتك بابي مسلم " يا امير المؤمنين ، عد هذا اليوم اول خلافتك " (٦)
وما كاد هذا الصراع عهداً قليلاً حتى تبدى مرة أخرى أعنف وأفجع في نكبة البرامكة
على يد الرشيد الذي وقتهم من نفسه وقتلهم امور ملكه فقال ليحيى البرمكي :
" قد قلدتك امر الرعيّة واخرجته من عنقي اليك فاحكم في ذلك بما ترى من العدل ،
واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الامور على ما ترى . ودفع اليه خاتمه " (٧)
وكان الحكم مساجلة بين العرب والغرس ، ومنازعة بينهما . قال الرقاشي
(وقيل ابونواس) عقب نكبة البرامكة :

اصيب بسيف هاشمي مهند (٨)

ودونك سيفاً برمكياً مهنداً

- | | |
|-----------------------------|---|
| (١) ضحى الاسلام ١ / ٤١ | (٥) ابن خلدون ١٦٠ |
| (٢) شرح نهج البلاغة ٤ / ١٣٣ | (٦) مروج الذهب ٦ / ١٨٤ |
| (٣) محاضرات الادباء ١ / ٢٢٠ | (٧) الطبري الجملة ٣ الجزء ١
صفحة ٦٠٢ - ٦٠٤ |
| (٤) البيان والتبيين ٣ / ٣٦٦ | (٨) ابن الاثير ٦ / ١٢٢ |

كان العرب يحسون انهم مغبونون . فالدولة كلها في ايدي البرامكة ، والعرب
 مبعدون عنها ، مقصيون عن المناصب الكبرى فيها . قال ابن خلدون : " . . .
 وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجافهم اموال الجباية حتى
 كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه . فغلبوه على امره ، وشاركوه
 في سلطانه . ولم يكن له معهم تصرف في امور ملكه ، فعظمت آثامهم ، وبعد صيتهم ،
 وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم من
 وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم . يقال انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى
 بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها اهل
 الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لكان ابيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد
 وخليفة . . . فتوجه الايثار من السلطان اليهم . وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاء
 عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه . . . " (١)

وجاء الخلاف ، آخر الامر ، بين الامين والمأمون بعد فترة قصيرة من الراحة من
 عناء هذه الحرب العنصرية - ان صح التعبير - يشطر المجتمع العباسي شطرين :
 ينتظم احدهما الفضل بن سهل الفارسي يناصر المأمون الفارسي الام ، وينتظم الآخر
 الفضل بن الربيع العريسي يناضل عن الأمين العريسي الام . وعدت نصره المأمون نصره
 للفرس (٢) . ولكنها نصره لم يهنأ بها الفرس طويلا . فقد تكشفت للمأمون سياسة
 الفضل الفارسية البعيدة الاهداف والاغراض ورأى ان عرشه يتلجج وان الرأي العام العربي
 يتهدى له مغضبا ، ويوشك ان يخلعه (٣) . نقضى على الفضل (٤) . وسواء كان نسي
 ذلك مختارا ام مرفعا لينقذ ملكه ، فقد كان تدبيره خطوة اخرى خطأها هذا التناحر العنصري
 الذي اثار كثيرا من العقلاء ، وهو صورة لهذه الحياة العنصرية الحافلة بالقلق والمناحرات

(٣) ابن الاثير ٦ / ٢٣٠ والطبري جم ٣

ج ١٠ / ١٠١٣

(٤) الطبري جم ٣ ج ١٠ / ١٠٢٥ - ١٠٢٧

(١) ابن خلدون ١٤

(٢) ضحى الاسلام ١ / ٤٤

التي تضافرت جميعا واغرت فئمة من الناس باعتزالها متوسلين لذلك بنزعة الزهد التي
سنعالجها بتفصيل في الكلام على زهد ابي العتاهية .

(٢) - الازدهار الاقتصادي والبذخ :

اتسعت رقعة الملك العباسي في هذا العهد حتى بلغت اكثر من ضعفي
مساحة اوروبا . واستتبع ذلك بالطبع وفرة الخراج . فشروة السواد في اواسط القرن
الهجري الثالث يقومها زيدان بالنقد اعتمادا على ابن خرداذبة فتساوى ٧٨٣١٩٣٤٠ (١)
درهما بالذهب العباسي . فليس بالبدع اذن ان تتضخم ثروات الافراد . والواقع
ان هذه الثروات لم تتكون طرفة . وانما بدأت تنهيا منذ عصر بنسي امية ثم أخذت تنمو
بمموالفتح الاسلامي حتى بلغت ما بلغته في العصر العباسي ولا سيما أيام المأمون .
فعبد الرحمن الناصر مثالا كان له خمسة عشر مليون دينار (٢) ، وعبد الرحمن بن محمد
خلف عشرين مليونا . فليس غريبا ان يكون للخيزران مائة وستون مليون درهم (٣) ، ولمحمد
بن سليمان خمسون مليون درهم ، الى جانب الدور والضياع وان يغل كل يوم مائة الف درهم (٤) .

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٥١ / ٢ - والدينار وحدة
نقد ذهبية سگها العرب على غرار الدينار الهرقلي
وهي تزيد وزنا على نصف الليرة الانكليزية بقليل (٦٦
قمحة) . وكان الدينار يصرف اول الامر بعشرة دراهم
ثم اخذت اسعار الفضة تتقلب بحيث بلغ احيانا
عشرين درهما .

(٢) ابن خلدون ١٥٧ - ١٥٨

(٣) مروج الذهب ٦ / ٢٨٩

(٤) مروج الذهب ٦ / ٢٨٩

كانت الاموال تتدفق على الدولة ، وعلى فئة قليلة من السكان . وكان البذخ في الهبات من علامات هذا الرفه الاقتصادي . كانت الفدرهم ثمنا لكل بيت من تصيدة ينشدها مروان بن أبي حفصة للمهدى (١) ، ومليون درهم هدية المأمون الى طبيبه (٢) ومائة الفدرهم ثمن الصوت يغنيه اسحق الموصلي يحيى بن خالد (٣) . ولكنه رفه لم يكن عاما بل كان وقفا على طبقة معينة من المجتمع هي طبقة افراد البيت المالك والوجهاء . ففي الحين الذي تبلغ فيه غلطة محمد بن سليمان مائة الفدرهم كل يوم يعترضه مجنون فيقول له : " يا محمد أمن العدل ان تكون غلتك في كل يوم مائة الفدرهم ، وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه ؟ " (٤) . فقد كانت الطبقة قائمة فعلا في المجتمع العباسي . وهذا يحيى بن خالد يعيبه على بناء ابنه أنه مخالط دور السوق (٥) . فأقطاعية الخلفاء والحكام والوجهاء ، والطبقة ، وتباين الثروات وسوء توزيعها ، كل ذلك كان في عداد العوامل التي أدت الى الأغراق في الملاذ والاقبال على المتع أقبالا نهما أثار الفقراء والمعدمين فنقموا كما أثار الاتقياء فتزهدوا وقنعوا (٦) ، حتى قال بعض الزهاد :

قل لمن أظهر التنسك في الناء	س وأسى يُعدّ في الزهاد
ألنم الشجر والتواضع فيــــــــــــه	ليس بغداد منزل العباد
ان بغداد للملوك محــــــــــــل	ومناخ للقارىء الصيــــــــــــاد (٧)

(١) الاغاني ٨٧ / ١٠ - ٨٨

(٢) طبقات الاطباء ١ / ١٢٨ - ١٢٩

(٣) حلية الكميت ٧٣

(٤) مروج الذهب ٦ / ٢٩٠

(٥) عيون الاخبار ١ / ٣١١

(٦) ضحى الاسلام ١ / ١٣٧

(٧) معجم البلدان ١ / ٦٩٠

وقال آخر :

بغداد أرض لاهل المال طيبة
أصبحت فيها مضاعا بين أظهرهم
وللمفالي سردار الضنك والضيقي
كأنني مصحف في بيت زنديقي (١)

ولنستعن على ايضاح ذلك بشرح العامل الثالث

(٣) - الاغراق في الفنون الحضريّة :

حملت الفتوح الاسلامية فيما حملت الرقيق من جوار وظلمان . فشاعت تجارته
كما هو مشهور . وتفنن النخاسون في جمع الجوارى والعناية بهن وغالى الناس في
اثمانهن . ويبدو أن المزاج العربي كان ميالا اليهن ، فقال احدهم : " عجبت
لمن لبس القصير كيف يلبس الطويل ؟ ولمن احفى شعره كيف اعفاه ، وعجبا لمن
عرف الاماء كيف يقدم على الحرائر ؟ " (٢) . فقد كان ورود هن على المسلمين ورودا
لالوان من الجمال لا عهد لهم بها : روميات ، وحبشيات ، وتركيات ، وسودانيات ،
وهنديات الخ . . . فتنافسوا في اقتنائهن وتهادوهن ، وكان عند أم جعفر منهن
كثيرات " . . . عمدت رؤوسهن وجعلت لهن الطرز والاصداغ والاقبية والبستهن
الاقبية والقراطي والمناطق فماست قد ود هن وبرزت اردافهن وبعثت بهن اليه (ابنها) ،
فاختلفن بين يديه فاستحسنهن ، واجتذ بن قلبه اليهن ، وابرزهن للناس من الخاصة
والعامّة ، فاتخذ الناس من الخاصة والعامّة الجوارى المطمومات والبسهن الاقبية والمناطق
وسموهن الغلاميات " (٣) . والرشيذ بذل ثلاثين الف درهم في مغنية اسمها
عنان (٤) . وقيل أن ابنه الامين اشترى جارية بملء حراقة ذهباً أي بما يقم
بعشرين مليون درهم (٥) .

(٤) العقد الفريد ٦ / ٥٨

(٥) الاغانى ١٥ / ١٤٥

(١) معجم البلدان ١ / ٦٩٠

(٢) العقد الفريد ٦ / ١٢٨ - ١٢٩

(٣) مروج الذهب ٨ / ٢٩٩

ولم يكن هذا التهاك على الجوارى وفقا على الخلفاء وحدهم ، فقد كان لابراهيم
الموصلى المغنسي عدد كبير منهم بلغ ثمان أهداهن ثلاثين ألف دينار ، وكان لرجل
اسمه عون الخياط جارية باعها بمائة الف دينار (١) . وكانت الجوارى تورث فيما يورث
من متاع ومال (٢) . فلا غرو ان يكون تزواج بأعجميات ، فأمهات بعض الخلفاء كن من
الاعجميات ، كأم المنصور والمأمون والمعتمد وغيرهن (٣) . ولا غرو ان يكون لهؤلاء
الجوارى أثر كبير في توجيه الحياة السياسية والاجتماعية ، وفي نشر الخلاعة
والمجون بوجه خاص (٤) . ولقد كانت مجالس اللهو والطرب ميدانا لهذا السبي
" دعاني المأمون وعنده ابراهيم بن المهدي ، وفي مجلسه عشرون جارية قد اجلس
عشرا عن يمينه وعشرا عن يساره ومعهن العيدان يضررن بها " (٥) . وفي
مجلس آخر كان بين يديه عشرون وصيفة رومية " منزوات قد تزين بالديباج
الرومي وعلقن في اعناقهن صلبان الذهب وفي ايديهن الخوص والزيتون . . . فلما
أخذهن الطرب من رقصهن وغنائهن نشر عليهن ثلاثة الاف دينار (٦) .

وكان لهؤلاء الجوارى اثرهن في تطوير الحياة الاجتماعية فبات لمجالس الانس
آدابها وظرفاؤها ، ودخلت في الغناء الوان جديدة ، وتلقح المجتمع العباسي كله
بتراث الامم التي تنتمي اليها هذه الجوارى . فاذا رأيت أن أم المنصور ترصع خفيها
بالجواهر (٧) وتتخذ الآلة من الذهب والفضة المكلفة بالجواهر وتبالغ في ملبسها

(١) الطبرى جم ٣ ج ١١ / ١٣٣٢

(٢) الاغانى ٢٢٢ / ٥

(٣) المعارف ١٨٨ - ٢٠٠

(٤) ضحى الاسلام ١ / ٩٧

(٥) الاغانى ٢٨٥ / ٥

(٦) الاغانى ١٣٨ / ١٩ - ١٣٩

(٧) مروج الذهب ٢٩٨ / ٨

حتى تنفق على ثوب واحد خمسين ألف دينار، وتتخذ القباب من الفضة والابنوس
والصندل وتوشيها بالديباج والحرير وتوقد شمع العنبر، وإذا رأيت أن الناس قد
تشبهوا بها (١)، فأعز ذلك الى هذا السببي من الجوارى اللاتي اتين الى
مجتمع العباسيين ببدعة الثياب الموشاة بالذهب، او المزدانة بالاشعار، وبالنعال
المزخرفة المحلاة بالكتابة (٢).

اما الغلمان فلقد ملئوا القصور . وهذا الامين صرف اليهم همه حين ولي
الخلافة فأرسل في طلب الخصيان " وقالى بهم وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره،
وفرض لهم فرضا سماهم (الجرادية) وفرضا من الحبشان سماهم (الغرايبية)
فقال احدهم . . .

لقد اقيمت للخصيان بعلا تحمل معهم شرم البسوس" (٣)

وكان من اثر هؤلاء الخصيان ان فشت ظاهرة حب الغلمان التي تعزى الى
ازدياد النفوذ الفارسي في ذلك العصر (٤) . فقد ذكر الطبري ان الامين انصرف
بغلمانة عن النساء " ورفض النساء الحرائر والاماء حتى رمي بهن . ففي ذلك يقول
بعضهم :

وما للغانيات لديه حظ
اذا كان الرئيس كذا سقيما
سوى التقطيب والوجه العبوس
فكيف صلاحنا بعد الرئيس (٥)

(١) مروج الذهب ٢٩٨/٨

(٢) الموشى ١٢٥/٢ وما بعدها وصفحة ١٦٥ - ١٩٢

(٣) الطبري ج ٣ ج ١٠ / ١٥٠ - ١٥١

(٤) الحضارة الاسلامية ١٠٨

(٥) الطبري ج ٣ ج ١٠ / ١٥٠ - ١٥١

وعمت العصر موجة من التهمك والمجون والخلاعة • وكان بعض الصالح والعقلاء
يبدلون جهدهم في صد هذا التيار القوي بالدعوة الى التقى وبالتزهد بشؤون الدنيا
وملذاتها الاثيمة (١) •

(٤) - التقدم العلمي وتسرب الافكار الفلسفية :

كان لاختلاف عناصر السكان وتباين اقاليمهم أثر بيّن في تسرب الثقافات الاجنبية
الى العباسيين • ويعود الفضل الاكبر في وصل العباسيين بالثقافة الفارسية الهندية
الى مدرسة جنديسابور • فقد كان المنصور يستدعي رئيس اطبائها جورجيس بن بختيشوع
لمعالجته (٢) ، والرشيد يعزل جبريل بن بختيشوع بانشاء بيمارستان في بغداد
على غرار بيمارستان جنديسابور (٣) • اما الثقافة اليونانية فقد جاءتهم من الاسكندرية
وحران على يد السريان ولا سيما بطريق بيت الحكمة في بغداد • ونخص بالذكر فلسفة
افلوطين المعروفة باسم الافلاطونية الحديثة ، وما خلفته من اثر في الصوفية الاسلامية •
وسرى نيت بعد ان الثقافة اليونانية قد اثرت في الحياة الفكرية تأثيرا منقطع النظير •
وحسبنا هنا أن نقول أن جماعة الفلاسفة أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد ، وجماعة
المتكلمين الذين كان لهم نصيب وافر في تطوير العصر وأشاعة القلقى الروحي فيه ،
قد أقبلوا على النقاش والجدل في المجتمع العباسي مشبعين بتراث اليونان وفكر اليونان •
ذلك القلقى الذى حمل نفرا من الصالح على اعتزال الحياة العباسية • فقد كانت المشادات

(١) ضحى الاسلام ١٠٣/١

(٢) طبقات الاطباء ١٢٣/١

(٣) طبقات الاطباء ١٧٤/١

الكلامية والفلسفية على أشدها ، وكانت موضع استهجان كثيرين من الورعين أو نقمتهم كما سيتضح من سياق الحديث عن الحياة الفكرية . وكذلك الثقافة الهندية فقد اعارها العلماء نصيبا وافرا من الاهتمام ، ولا سيما الحساب ، والعقائير . وهذا ابن النديم يذكر طائفة من الكتب الهندية المشهورة التي نقلت الى العربية (١) . ومن هذه الثقافة الهندية اقتبست الصوفية فكرة الفناء الروحي (النارفانا) وكذلك الصبغة التي اصطبغ بها الزهد حتى تحول من نزعة الى فلسفة (٢) . ولقد ظهرت هذه الثقافة في عقيدة التناسخ التي دانت بها بعض الفرق الدينية ، وفي قول السبئية بتناسخ الجزء الالهي ، وفي جماعة النصيرية التي تزعم ان الذين لا يؤمنون بعلي يرتدون " جمالا او بغالا او حميرا او كلابا او نحو ذلك من اصناف الحيوان " (٣) . وصاحب الاغانى (٤) يذكر مذهب السمنية الذي كان شائعا في ذلك العصر وهو من المذاهب الهندية القائلة بالتناسخ . ولم يكن الاقتباس من الهند في الروحانيات فحسب ، ولكنه كان كذلك في الرياضيات والفلك والادب ، وفي الحكم والطب بوجه خاص .

ونشطت حركة الترجمة في العلم الاعجمية منذ العهد الاموي على يد خالد بن يزيد ، ولكنها كانت محاولات فردية تقتصر على العلم العملية ولا تتعداها الى العلم العقلية (٥) . غير انها اتسعت في العصر العباسي ، فترجمت الكتب في التنجيم والطب . وكان لتشجيع الخلفاء اكبر الفضل في رواجها حتى قيل ان المؤمن كان يمنح المترجم زنة ما يترجم ذهباً (٦) . ولقد عثر الرشيد في حرابه في انقرة

(١) الفهرست ٣٠٥ ، ٣١٥ - ٣١٦
 (٢) امراء الشعر ٥٧
 (٣) ضحى الاسلام ٢٥٣/١
 (٤) الاغانى ١٤٧/٣
 (٥) ضحى الاسلام ٢٨٤/١ - ٢٨٥
 (٦) وارجع تاريخ التمدن الاسلامي ١٤٣/٣

وعمرية وسائر بلاد الروم على كتب كثيرة حملها الى بغداد وعهد الى طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها (١) . وهو الذي اشار بترجمة كتاب اقليدس والمجسطي .
 الا أن عهد المأمون كان أكرمناية بكتب الفلسفة . فقد تعددت الفرق والآراء الدينية في القرن الثاني ، وظهر مذهب الاعتزال وكثر المتشيعون له ، وكانت قضية خلق القرآن مستحوزة على اهتمامه وعقيدته ، يعاقب من لا يدين بها ، فيعقد المجالس وينظر الفقهاء دفاعا عنها وانتصارا لها (٢) .

ووضعت في هذا العصر اسس كل العلوم تقريبا : جمع الحديث وحققه ، ودرس النحو ، ودونت العروض ، وأقبل العلماء على الشعر يجمعونه وألفت المعاجم ووضعت الكتب في الفقه والتاريخ والسير والمغازي .

وهكذا ترى انه طرأت على الحياة العباسية جملة عوامل أدت الى تطورها وتوجيهها وجهة جديدة لم ترض الناس جميعا ، وانما جعلتهم فريقين : فريقا يقبل عليها وينهل من معينها ولذاتها . وفريقا ينقم عليها انها استحدثت وأبدعت ما لم ينزل الله به من سلطان . فلننظر اذن في مظاهر تطور الحياة العباسية بعد ان اجملنا الكلام في اهم عوامل هذا التطور .

(١) طبقات الاطباء ١ / ١٧٥

(٢) حياة الحيوان ١ / ٧٢

- الفصل الثاني -

مظاهر التطور في الحياة العباسية

لا معدى لنا بعد أن ألمنا بابرز عناصر تطور الحياة العباسية من أن نستعرض بعض مظاهر هذا التطور المتمثلة في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية العباسية .

(١) - الحياة السياسية :

خلاصة ما يقال في الحياة السياسية في العصر العباسي الاول ، انها حياة قلقه مضطربة : الشعبية على اشد ما تكون ضراوة بين العرب والفرس . وقد اندست في شتى مناحي الحياة . تسترت تارة بالادب والتشيع والحديث والفقه ، واعتصمت تارة اخرى بحركات الزنادقة ، ولم تأل جهدا في استغلال الفتن الداخلية كما رأينا في الخلاف بين الامين والمامون . ويعتقد احمد امين ان كثيرا من الشعبيين الفرس كانوا يحسون في اعماق انفسهم ، وهم يتكلمون بالعرب الذين يثورون في انحاء المملكة العباسية ، انهم انما ينتقمون من ييم القادسية المشهور (١) . وهو اليم الذي سطر فيه العرب انتصارهم على الفرس وغلبتهم عليهم فتغنوا به طويلا . وظل الفرس يتحسسون المهانة والاسى كلما تمثلوا هذا اليم . فليس غريبا ان ان نشاهد الشعبية ^{وراء} كثير من الاحداث السياسية الداخلية او الثورات التي قامت بعد مقتل ابي مسلم كثورة سبانه ، وهو مجوسي من خراسان ، طالب بدم ابي مسلم وظاهره اهل خراسان ، والراوندية ، وهي جماعة من اتباع ابي مسلم قالت بان الروح التي كانت في عيسى بن مريم حلت في علي ثم في ولده الائمة واحدا واحدا . وزعموا انهم آلهة ، فاستباحوا الحرمات .

ومنهم من ألبه ابا جعفر المنصور • وظلوا على دعواهم بالرغم من تنكيل المنصور بهم
يظهرون تارة في فرقة الخرمية ، اتباع بابك الخرمي الذي ادعى الالهية ، وعاش
في الارض فسادا ، وأباحوا المحرمات وقالوا بالاشتراكية في النساء ، وعظموا ابا مسلم
ولعنوا المنصور • وقوام ديانتهم النور والظلمة • وتارة بالمقنعية الذين خرجوا
بزعامه رجل لقب بالمقنع لانه كان يضع على وجهه القبيح قناعا من ذهب ليخفي به
قبحه • ادعى الالهية ، وقال ان صورة الله حلت بالتسلسل في آدم ثم في علي ففي
اولاده ثم في ابي مسلم ثم فيه من بعده • وكان يقول انه لا يظهر بصورته حتى
لا يحترق عباده بنوره • وتعاليمه لا تختلف عن تعاليم سابقيه من اسقاط للفرائض واباحة
لما حرم الله على المسلمين ، وقال بتعاليم مزدك (١) • والمتبع للتاريخ العربي
والاسلامي يرى ان اسلام الفرس وولاهم للعرب لم يكونا صادقين ، فظلت تعتمل
في نفوسهم النزعة الدينية (٢) والقومية ، تنبعث كلما تنسجت في الكيان الاسلامي
والعربي رُوح الوهن والضعف ، كما شاهدنا فيما ذكرنا من احداث • فطاهرين الحسين
وهو من قواد المأمون الذين ولّاهم على خراسان ، ما كاد يستتب له فيها الامر ، حتى
تفرد في الحكم ، فاسقط اسم المأمون من خطب الجمعة ، واسس الدولة الطاهرية ،
وهي اول دولة استقلت عن الخلافة العباسية (٣) •

هذا من الناحية العنصرية • اما من الناحية الحزبية - بتعبيرنا الحديث -

فقد كان العصر قلما كذلك • تعددت فيه الاحزاب السياسية التي ترجع نشأتها الى

(١) تاريخ الاسلام السياسي ٩٩/٢ - ١١٣ وفيه ذكر لمصاد رعن هذه الفرق •

راجع بصورة خاصة الصفحات ١٠٢ ، ١٠٣ - ١٠٥ •

(٢) الصراع بين المرالي والعرب ٤٠

(٣) راجع الطبري جم ٣ ج ١٠ / ١٠٦٤ - ١٠٦٥

عهد معاوية ومن نهج نهجه من خلفاء بني امية في توطيد دعائم الملك الاموي .
 فالخلاف بين علي ومعاوية ، وانقسام المسلمين حزيين : حزب علي وحزب معاوية ،
 ونشوء الخوارج ، ثم تجدد الخلاف بين الشيعة والامويين اثر مصرع الحسين —
 ومأساة كربلاء ، وقيام حزب الزبيريين الذي دعا لعبدالله بن الزبير في مكة سنة
 ٦٣ للهجرة ، فحزب العباسيين الذي قوض العرش الاموي — كل هذا أدى
 الى اضطرابات وفتن كثيرة — فالشيعة لم ينسوا حقهم في الخلافة ، فقد ثار محمد
 بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب (النفس الزكية) واخوه
 ابراهيم في الحجاز والعراق ، في عهد المنصور ، وثاروا كذلك أيام الهادي بزعامة
 الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي الذي قتل في موقعة
 فخ ، وبعده خرج يحيى وادريس ابنا عبدالله في الديلم والمغرب ، ومحمد بن
 جعفر والقاسم بن ابراهيم بعدهما . وصحيح ان ثورات العلويين قد كُبتت فسي
 الحكم الاموي ، الا ان العلويين لم يعدوا الانصار والمؤيدين . فقد ثاروا ثورة
 الحسين الشهيرة ، وثورة المختار في العراق ، ثم في خراسان حيث تحولت دعوتهم
 من علوية الى عباسية . جميع هذه الثورات مهدت لثوراتهم في الحكم العباسي .
 اما الخوارج وهم الفئة التي خرجت على علي لقبوله بالتحكيم بعد واقعة
 صفين فكانوا اعداء الامويين واعداء العلويين ، يرون ان الخلافة ليست وقفاً
 الا على الأكفأ من المسلمين . لا عبرة في ذلك لحسب او لثروة او لغير ذلك .
 ولقد اصلوا بني امية ناراً حامية من ثوراتهم ، وكان ان تفاقم امرهم في عهد آخر
 الخلفاء الامويين مروان بن محمد فثاروا بقيادة ابي حمزة في الحجاز وحضرموت .
 ولم يتغير موقفهم في العهد العباسي ان لم يجدوا فيه ما يرضي عقيدتهم فسي شأن
 الخلافة ، فظلموا في ثورات ، ولا سيما في حكم الهادي ، وكان منشأ الفرق الكلامية

من ذيول هذه الفرق السياسية من شيعة خوارج • وظهور المعتزلة مثلا يرجع الى قضية مرتكب الكبائر التي اثارها الخوارج بعد موقعة صفين • اذ حسبوا تلك الفتنة من صنع جماعة من المسلمين خرجوا ، في عرفهم ، على الايمان باشغالهم نار هذه الفتنة وعدوهم من اصحاب الكبائر • واقبلت غير جماعة من جمهور المسلمين على هذه النظرية تشبعها درسا وتمحيصا • فانكرها قوم ، وتوسط في امرها آخرون ، واستقر الجدل عند الحسن البصرى ، اذ تطورت الى بحث في ماهية الايمان ، وفي منزلة العمل من الايمان • فكان رأيه ان مرتكب الكبائر " ليس بمؤمن ولا كافر ولكنه وسط بين ذلك " (١) • بيد ان احد تلامذته ، وهو واصل بن عطاء ، لم يقنعه هذا الاجتهاد ، فقد كان يرى ان مرتكب الكبائر في منزلة بين المنزلتين : منزلة الكفر ومنزلة الايمان ، وانه فاسق ، ومعذب بالنار ، غير مخلد فيها • واعتزل مجلس استاذة الحسن فسمي واتباعه باسم المعتزلة •

والمرجئة نشأت كذلك نتيجة هذا الجدل الفلسفي الذي اثارته قضية مرتكب الكبائر ، وهي من ذيول مشكلة الخلافة ، فرأت هذه الجماعتان البحث في ذلك عبث لا طائل وراءه ، وان ارجاءه الى الله اجدى واحكم • وهكذا تطورت الخلافات السياسية الى خلافات فلسفية وفكرية • تطورت كما تطورت مذاهب اصحابها حتى غدت علما له طلابه ومعلموه - علم الكلام - • فالخوض في مسألة القضاء والقدر مثلا ، كان من نتائج الفتن بعد خلاف علي ومعاوية • فقد رأت طائفة من المسلمين ان عدل الله لا يبيح مثل هذه الفتن لانه لا يبيح الظلم ، وقالت بان المرء مخير بالتالي •

(١) راجع الملل والنحل للشهرستاني ٦٤/١ ، و٥٤ - ٣١٨ وأقرأ عن هذه الفرق في كتاب الفرق بين الفرق " للبيهدادى في صفحة ٩٣ وما بعدها و١٩٠ وما بعدها • ولقد كان كتاب معالم الفكر العربي" للدكتور كمال اليازجي رائدنا في هذا البحث • (صفحة ٥٧ وما بعدها) •

وهذا اصل فرقة " القدرية " الذين اعتقدوا بان الحساب ان باطل ما دام الله يسطر للناس اعمالهم ثم يحاسبهم عليها . ومقابل هذا الرأى في القدرة او الاختيار، كان رأى آخر يقول بالقضاء او الجبر تعتقه طائفة الجبرية التي ترى ان الانسان مسير في كل شأن من شؤون حياته .

ولقد تطور الجدل طبعاً وكثر البحث في العقائد ، وتشعب ، واشيرت قضايا العقل والسمع والعدل والتوحيد والوعد والوعيد والصفات الالهية وخلق القرآن . وانقسمت الفرق فيما بينها شيئاً فشيئاً . فالمعتزلة انشعبت الى نحو ثلاث عشرة فرقة ، والخوارج الى عشرين تقريباً ، والشيعية الى زهاء ثلاثين ، والمرجئة الى ما يقرب من السبع (١) .

وما اعان على نماء هذا العلم ما جدّ في الحياة العباسية من تطور ، فسي التفكير - فقد استراح المسلمون من عناء الفتح واحسوا طمأنينة الاستقرار والهدوء فمال عقلم الى النظر والتأمل في قضايا لم يتح لاسلافهم المسلمين الاولين بحثها والجدل فيها . واعان على ذلك ايضا ما تسرب من افكار دخليية ؛ فلقد اعتنق الاسلام اقوام مختلفون من ديانات مختلفة ؛ يهودية ومسيحية ومانوية وزرادشتية وهابشية ، لم يتحللوا من عقائد هم الاولى ، فظلوا يفكرون فيها متأثرين بها وهم يناقشون في الدين الجديد الذى قبلوه . ولقد كان من اغراض بعض هذه الفرق الكلامية كالمعتزلة مثلاً ، الرد على المخالفين والدعوة الى الاسلام (٢) . فكان لا بد لهم وهم يجادلونهم ويردون حججهم من ان يتهجوا نهجهم في المناظرة والنقاش فيطلعوا على عقائد سواهم ، وبعضها كان سلاحه الفلسفة والمنطق اليونانيين ، ولذلك عرف ابن خلدون علم الكلام بقوله :

(١) ضحى الاسلام ٣٤٨/٣ ولم يذكر الباحث مصدر هذا التقسيم ولكننا عثرنا عليه في الملل والنحل للشهرستاني ٥٧/١ - ١١٢ ، و١٧٠ - ٢١٨ ، و٢٣٤ - ٣١٨ .
(٢) ابن خلدون ٤٠٠ ، انظر ايضا ٤٠٧ - ٤٠٨ .

” هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالادلة العقلية والرد على
المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف واهل السنة ، وسر هذه
 العقائد الايمانية هو التوحيد (١) ” . وانقسم الناس شيئا واحزابا بين معتزلة
 ومرجئة واشعرية وخوارج وشيعة . وكل واحدة منها انقسمت فيما بينهما كما ذكرنا .
 والى جانب هؤلاء جماعة من الشكك متشعبين ثلاث شعب : واحدة شككت في الالهية
 والنبوة واخرى اثبتت الاله وشككت في النبوة ، وثالثة آمنت بالالهية والنبوة وشككت فيما
 عدا ذلك - ملل ونحل وعقائد لا حصر لها ، ورقعة شاسعة من الارض ، وامم متباينة شتى
 وعقليات جديدة ، واخرى متجددة ، وكل هذا يودي الى مجادلة ومناظرة وتفكير كما
 رأينا مما اضعف شأن الامة ، ففترت الحماسة الدينية ووقفت الفتوح واتجهت الجهود
 الى اطفاء نار الفتن الدينية والسياسية . فمن حق جمهور الناس ان ينفر من هذه
 المجادلات والمناظرات الكلامية التي لم يعتدها ولم يعمل اليها بطبعه . فابن خلدون
 مثلا يعلق على علم الكلام قائلا : ” وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر
 الى الاسباب والوقوف معها فانه واد يديم فيه الفكر ولا يحلومنه بطائل ولا يظفر
 بحقيقة ” (٢) . فعنده ان النظر في الاسباب قد نهى عنه الشرع وانه كفر وانسه
 امر بان نقر بالايان الخالص العميقي ” فاننا الضامن له ان لا يعود الا بالخيبة
 فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الاسباب وامرنا بالتوحيد المطلق قل هو الله احد . . . ” (٣)

(١) راجع ابن خلدون ٤٠٠ = ٤٠١

(٢) ابن خلدون ٤٠١

(٣) ابن خلدون ٤٠١

فقد قوبل هذا العلم من جمهور المسلمين قبولا تعوزه الحفاوة . فمالك بن انس يقول
 " امض الحديث كما ورد بلا كيف ولا تحديد الا بما جاء به الآثار وما جاء به
 الكتاب " (١) . ويقول عن الاستواء على العرش : " الاستواء معلم ، والكيف
 مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة " (٢) .

اذن ، فقد كانت هذه الطفرة الفكرية موضع السخط والنقمة . وهذا احمد
 بن حنبل يُبْتَلَى بقضية خلق القرآن وتنزل به المحنة المعروفة (٣) . وما ذلك
 الا لون من ألوان هذا الصراع الفكري الذي تلبس لباس السياسة فيما بعد . وابو
 يوسف القاضي يقول عن علم الكلام " من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن طلب المال
 بالكيمياء افسس ، ومن طلب غرائب الحديث كذب " (٤) . وقال ايضا : " طلب
 العلم بالكلام هو الجهل والجهل بالكلام هو العلم " (٥) . والامام الشافعي
 يحذر الناس من هذا العلم فيقول : " لو يعلم الناس ما في الكلام من الالهواء لغروا
 منه فرارهم من الاسد " " ولان يلقي الله تبارك وتعالى العبد بكل ذنب ما خلا
 الشرك خير له من ان يلقاه بشيء من علم الكلام " (٦) . فقد حرم الفقهاء كالشافعي

-
- (١) مختصر الصواعق المرسله ٢٥١/٢
 (٢) طبقات الشافعية ١٢٦/٣ . راجع ايضا شرح العيون ١٤٢ بنص يختلف اختلافا
 يسيرا جدا .
 (٣) راجع مناقب الايمان احمد بن حنبل صفحه ٣١٠ - ٣٤٠
 (٤) عيون الاخبار ١٤١/٢
 (٥) تاريخ بغداد ٦١/٧
 (٦) حياة الحيوان ١١/١

ومالك وابن حنبل وسفيان واهل الحديث جميعا علم الكلام (١) . ألم يفت الشافعي بتكفير طالب هذا العلم ؟ ألم يعده موجبا لغضب الله؟ " ولأن يُبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خيره من ان ينظر في علم الكلام وقال ايضا : " اذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى او غير المسمى فاشهد انه من اهل الكلام ولا دين له " (٢) . اذن فالمجادلون والمتكلمون كفره ، وحكم الشرع فيهم يصدره الشافعي نفسه ، " حكمي في اهل الكلام ان يضربوا بالجريد ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واخذ في الكلام " (٣) والامام احمد بن حنبل يرى رأى الشافعي " لا يفلح صاحب الكلام ابدا ، ولا تكاد ترى احد ينظر في الكلام الا وفي قلبه مرض " (٤) .

ولكن هذا الحكم القاسي لم يكن الحكم العام . كان ثمرة جماعة من المفكرين وقفوا وراء هذا العلم يناصرونه ويشدون ازره ، وكان كذلك جماعة من الدارسين المشغوفين بهذا العلم الجديد .

اذن فالمجتمع العباسي فريقان في ذلك : فريق المتكلمين المتفلسف ، وفريق اهل السنة المتحفظ . ومنه الامام احمد الذي حكم على المتكلمين بالفشل والهوى ، يقاطع الحرث المحاسبي على ورعه وزهده لانه جادل علماء الكلام ويقول له : " ويحك . ألسنت تحكي بدعتهم اولاً ثم ترد عليهم ؟ ألسنت تحمل الناس يتصنيفك على مطالعة كلام اهل البدعة والتفكير فيه فيدعوهم ذلك الى الرأى والبحث ؟ " (٥) .

(١) حياة الحيوان ١١ / ١

(٢) حياة الحيوان ١١ / ١

(٣) حياة الحيوان ١١ / ١

(٤) حياة الحيوان ١١ / ١

(٥) حياة الحيوان ١١ / ١

وكيف يقبل الناس على مواطن الوباء ، ويقربون مظان العدوى ، وكيف يقرأون اقوال المتكلمين وهم زنادقة لا تجوز لهم شهادة في عرف المحتججين بقول مالك " لا تجوز شهادة اهل البدع والاهواء " (١) . ولم يقف المتكلمون مكتوفي الايدي بالطبع . بل لقد هاجموا اصحاب الحديث وكذبوهم وسفّهموا رواياتهم وحاولوا ابطال الحديث من الاساس . وقامت بين الفريقين مشادات (٢) . وتعدت النعمة جماعة الفقه والسنة الى الابداء .

قال الاصمعي :

واني لاغنى الناس عن متكلم يرى الناس ضلالا وليس يمهدى (٣)

وقال محمد بن بشير :

دع من يقود الكلام ناحية فما يقود الكلام ذو روع (٤)

وعبد الله بن مصعب :

...

فان مقالتهم كالظلالا	ل يوشك افيأوها ان تزولا
وقد أحكم الله آياته	وكان الرسول عليها دليلا
واوضح للمسلمين السبيل	فلا تتبعن سواها سبيلا
اناس بهم ربيبة في الصدور	ويخفون في الجوف منها غليلا (٥)

اهواء وفرق ومشادات . فاذا اضفت الى هذا الجوال عباسي المحمم بالمنازعات العرقية والكلامية والفلسفية ، المنازعات السياسية الداخلية من ثورات علوية وخارجية ، كما وصفنا في مستهل الحديث عن الحياة السياسية ، وحروب خارجية ، ودسيمة ورشوة وظلم ، ادركت اى جو صاخب مضطرب كانت تتنفس فيه الحياة العباسية .

(١) حياة الحيوان ١١ / ١

(٢) تأويل مختلف الحديث صفحة ٢ وما بعدها

(٣) عيون الاخبار ١٤١ / ٢

(٤) تأويل مختلف الحديث ٧٥

(٥) تأويل مختلف الحديث ٧٥ (راجع لهذا القسم من البحث كتاب " المعتزلة " لزهدى جار الله ولا سيما صفحة ٢٤١ وما بعدها)

(٢) - الحياة الاجتماعية :

قلنا في الحديث عن حركة علم الكلام والفرق الكلامية ، ان من الاسباب التي اسهمت في نشأتها وتطويرها حياة الاستقرار بعد عناء الفتوح . ولا محيص من ان يواكب هذا الاستقرار رخاء في الحياة الاجتماعية . ولقد اشرنا الى شيء من هذا القبيل في معرض كلامنا عن اغراق الناس في الغنون الحضريّة على اثر الرفاه الاقتصادي الذي كان يغمر الدولة وارباب الثراء . فالزراعة والتجارة والصناعة في ازد هار كبير . ففارس تصدر كل سنة ثلاثين الف قارورة من ماء الورد مثلا ، وخراسان تصنع عشرين الف ثوب ، وطبرستان والرويان ونهاوند ستمائة قطعة من الفريسي ، ومائتين من الاكسية . يضاف الى هذا الوف القناطير من الزيت والعسل والتمر من سائر انحاء المملكة (١) .

فقد اعاد العباسيون الزراعة اهتماما ورعاية بالغين : حفروا الانهار والترع ، واقاموا الجسور ، فاذا " بين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه انهار من الفرات (٢) " . وطبيعي ان يرافق هذا الازدهار الزراعي ازدهار تجاري . ولقد كانت السفن العباسية تبلغ سومطرة وزنجبار وكلكتا وجزائر الهند والصين ومدغشقر والاندلس . والمصطلحات التجارية التي اقتبسها الفرنجة من اللغة العربية تشهد بهذا التوسع التجاري الفذ (٣) فقد بلغوا في تجارتهم الصين . وهذا المقدسي يشهد بالاقليم الذي يتصل بحره

(١) ابن خلدون ١٥٦ - ١٥٧

(٢) مسالك الممالك ٨٥

(٣) امراء الشعر ٣٤

بالصين ويقول عن تجارات الصين ان بها تضرب الامثال (١) . وتاجروا بالحجارة
الكريمة والمسك والعنبر والزجاج والخزف والارز والعقاير والبنوس والحديد
والرصاص والصندل والبلور وجلود النمر والرقيقى (٢) وان من التجار من كان نسي
بضاعته ما يبلغ ثمنه ملايين الدراهم . ولقد روى لنا الطبرى من ذلك ان جعفر
الهمركي سام جوهريا على سفت من الجوهر بسبعة ملايين درهم (٣) . ولا نستغرب
هذا والثروات تتدفق تدفقا على الدولة وعلى بعض الافراد . فاذا اغفنا الى دخل
الدولة الرسمي الذي بلغ الملايين ، الدخل الفردي ، ووقفنا على مبلغ الرقعة الاقتصادية ،
فالمنصور يخلف اكثر من اربعة عشر مليون دينار وستمائة مليون درهم (٤) . والرشيد
يموت عن تسعمائة مليون درهم (٥) . وللخيزران ربع يناهز مائة وستين مليون
درهم (٦) . فاذا عدلنا عن الخلفاء الى الوجهاء طالعنا ثروات الهرامكة وهي
اشهر من ان تذكر . فخالد منح بشارا الف درهم لكل بيت من قصيدته التي مدحه
بها (٧) ، ويحيى بن خالد وهب اسحق الموصلى مائة الف درهم ووهبه كل من
ولديه مثل ذلك (٨) .

-
- (١) احسن التقاسيم ٩٧
(٢) احسن التقاسيم ٩٧
(٣) الطبرى جم ٣ ج ١٠ / ٧٠٣
(٤) مروج الذهب ٦ / ٣٣٣
(٥) الطبرى جم ٣ ج ١٠ / ٧٦٤
(٦) مروج الذهب ٦ / ٢٨٩
(٧) الاغانى ١٧٣
(٨) حلبة الكميث ٧٣

ولم تكن كل هذه الاموال مشروعة . بل كان جزء كبير منها مصادرة . فالهدايا التي بعث بها علي بن عيسى بن ماهان عامل الرشيد في خراسان الى الخليفة ، قال عنها يحيى بن خالد انها " ما اجتمعت له حتى ظلم فيها الاشراف واخذها اكثرها ظلما وتعديا . ولو امرني امير المؤمنين لاتي بضعفها الساعة من بعض تجار الكرخ . قال وكيف ذاك ؟ قال : قد ساومنا عوننا على السفط الذي جاءنا به من الجوهر واعطيناه به سبعة آلاف الف فأبى ان يبيعه ، فابعث اليه الساعة بحاجبي يأمره ان يرده اليها لنعيد فيه نظرنا ، فاذا جاء به جحدناه وريحنا سبعة آلاف ألف ، ثم كنا نفعل بتاجرهم من كبار التجار مثل ذلك ، وعلى ان هذا اسلم عاقبة ، واستراما من فعل علي بن عيسى في هذه الهدايا باصحابها ، فاجمع لامير المؤمنين في ثلاث ساعات اكثر من قيمة هذه الهدايا باهون سعي وأيسر امر ، واجمل جباية ، مما جمع علي في ثلاث سنين " (١) . ولا شك في ان يحيى خبير بمثل هذه الامور ان شهادته شهادة مجرب موثوق بتجربته !

وقد عمت سنة المصادرة هذه ، ولا سيما ايام حكم المتوكل والمعتمد والمقتدر والقاهر ، اضاف الى هذا ما كان يصادره الترك والد يللم (٢) .

وطبيعي ان يعم الحياة العباسية ترف وبذخ ، في الانفاق ، واللباس ، والطعام ، ومجالس اللهو والسمر . فالرشيد يجري على ابي العتاهية خمسين الف درهم في السنة (٣) ، ويجيز مروان بن ابي حفصة بعدد ابيات قصيدته الوفا ، وقبله اجازة المهدي بمائة الف لما مدحه بقصيدته :

(١) الطبري جم ٣ ج ١٠ / ٢٠٢-٢٠٣
 (٢) تاريخ اليعقوبي ٢٠٦/٣ - ٢١٣ راجع ايضا طبقات الاطبا ١٢٩/١ ، ١٣٨
 (٣) الاغانى ٦٣/٤

طرقتك زائرة فحيّ خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالتها

” فكانت اول مائة الف درهم اعطيها شاعرني ايام بني العباس ” (١) . والمهدى وهب ابن دحمان المغنسي مائة الف دينار مرة واحدة (٢) . وقد يبالفون في هذا الترف حتى ليعدوا به حد البطر والشرة كما فعل المأمون لما فرق في يوم واحد ستة وعشرين مليون درهم (٣) . وغير بعيد ان تكون هذه الروايات مبالغاً فيها .

فقصة المعتصم حين ملأ فم الحسين بن الضحاك بالجواهر (٤) لما هنأه بقصيدة في الخلافة ، تحتل كثيراً من الشك ، ولكنها تعكس لنا اتجاهها مألوقاً في الحياة العباسية بلا ريب . واخبار زواج المأمون ببوران كثيرة ، فقد زعم الطبري ان ابا بوران ، الحسن بن سهل ، فرق على قواد المأمون في ذلك اليوم خمسين مليون درهم (٥) ، وان المأمون دفع الى الحسن عشرة ملايين درهم من مال فارس واقطعه الصلح (٦) .

والحسن بن سهل هذا بلغ من الثراء حداً يصور الترف الذي كانت ترتع فيه طبقة الوجهاء العباسيين ، فقد كتب اسماً ضياعه في رقاع صغيرة ثم نشرها على المدعوين الى عرس ابنته ” فمن وقعت في يده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلمها ” (٧) . ولقد

(١) الاغاني ١٠ / ٨٨

(٢) الاغاني ٦ / ٢٢

(٣) فوات الوفيات ١ / ٥٠٣

(٤) الاغاني ٧ / ١٥٢ - ١٥٣

(٥) الطبري جم ٣ ج ١٠ / ١٠٨٣

(٦) الطبري جم ٣ ج ١٠ / ١٠٨٣

(٧) الطبري جم ٣ ج ١٠ / ١٠٨٤

انفقت حمد ونة في ذلك العرس خمسة وعشرين مليون درهم فاستهوتها ام جعفر
وقالت لها " ما صنعت شيئا . قد انفقت ما بين خمسة وثلاثين الف الف السي
سبعة وثلاثين الف الف درهم (١) " . حتى ان المأمون نعت انفاق آل بوران على
عرسها ومخالاتهم في البذخ بأنه سرف " واوقد في تلك الليلة شمعة
عبر فيها اربعون منّا في تور ذهب فانكر المأمون ذلك عليهم وقال هذا سرف (٢) " .
وهو نفسه الذي امر قبل دقائق من هذا ، لما نثرت جدّة بوران عليها الفادرة تبلغ
الف حبة من الدر ، بجمع هذا الدر ، ووهبه بوران . وكان قد وجد ، ناقصا عشر
حبات اخذها احد الحاضرين ، فامر بردها ووعده بان يخلفها عليه (٣) . وهو
نفسه الذي امهر بوران الف حصة من الياقوت ، وبسط لها فرشاً منسوجة بالذهب
مكللة بالدر والياقوت . (٤) وهكذا كان الانفاق سمة من سمات الحياة العباسية
المترفة ، ومدعاة الى التنافس والتفاخر . ولكنه كان كذلك مدعاة الى النعمة على
هذه الحياة المنحرفة ، نعمة سلبية تتجلى في الردة الروحية .
وهذا الانفاق جانب واحد من جوانب هذا المجتمع الذي نهض في كل ناحية
من نواحي الحياة . فقد قلنا ان تكاثر الاماء والغلمان يرجع الى الفتوح والحروب وما
استتبع ذلك من اسر . وكان هذا الرقي من ام شتى يحمل ثقافات ومدنيات مختلفة .
وقد رأينا ان غرام العرب به وتأثرهم كان كبيرا ، فعلاً قصورهم زوجات ومحظيات
وخدماء . وان عنايتهم بالجوارى منه كانت بالغة : فتقفوهن وعلموهن اصول الغناء ،
وتهادوهن ، وغالوا في اثمانهن واستعانوا بهن على مجالس لهوهم . فبديهي ان تنتقل

(١) الطبرى جم ٣ ج ١٠ / ١٠٨٤

(٢) الطبرى جم ٣ ج ١٠ / ١٠٨٣

(٣) الطبرى جم ٣ ج ١٠ / ١٠٨٢

(٤) ابن خلدون ١٥١

عن طريقهن عادات ونظم اجتماعية وخلقية وفكرية كثيرة . فالجيل الجديد العباسي كان اذن ملقحا بلقاح الاعاجم بدنا او عقلية ، او كليهما معا ، بطريق الاتصال بهؤلاء الجوارى بالزواج ، او الاحتكاك بالموالي جملة . بل ان الامويين الذين اُثر عنهم صفاة الدولة ، وخصوص حياتهم من الاعاجم ،^(١) كانوا متأثرين بعادات الفرس بعض التأثير . وهذا الحجاج بن يوسف العتبي ، ذو البأس والجد ، يستدعي احد الدهاقين ، لما عنم على الاحتفال باختتان ابنه ، ويسأله عن ولائم السفرس ليقلد هم في ذلك ^(٢) . فليس بدعا ان نرى عصر بنسي العباسي - وميزته تعدد العناصر واختلافها في نقلة سريعة واسعة الخطو في التغير والتطور . واذنا مستوى العيش كله في ارتفاع . فبعد ان كان العرسي يحسب المرقق رقاعا لما ملك فارس والرم ، والكافور ملحا يذره في عجينه^(٣) ، صار يأكل الدجاج الهندي كما كان يفعل سليمان بن عبد الملك^(٤) ، والبط^(٥) ، ويتفنن في مزج الاطعمة وتحضيرها . فالمنصور يستجيد العجة من المنخ والسكر^(٦) . والمهدى يأتي لطباخه بمن يلقنه صنع الوان " المنخ المعقود بالسكر الطبرزد والعسل وغير ذلك " ^(٧) . وقالوا في النفقة على موائد هم ، وان منهم من كان ينفق على طعامه ثلاثين الف درهم كل شهر^(٨) ،

(١) البيان والتبيين ٣ / ٣٦٦

(٢) ابن خلدون ١٥١

(٣) ابن خلدون ١٥٠

(٤) العقد الفريد ٤ / ٤٣١

(٥) انساب الاشراف جزء ٤ قسم ٢ / ٨٦

(٦) مروج الذهب ٦ / ١٩٨

(٧) مروج الذهب ٦ / ٢٢٦ - ٢٢٧

(٨) حلبة الكميث ٦٣

ويرسي الطيور الداجنة فيعلفها الجوز المقشر ويسقيها اللبن الحليب او يأكل
الدجاج المشوى (١) ، ويعدّ كل طعام سخّن مرتين فاسدا (٢) . واقبلوا علسي
سائر الملاذ ينتهبونها انتهايا ؛ تغنوا في اللباس ديباجا وحريرا وخزا ، وفي الاثاث
والزينة (٤) قيل انه كان للرشيدي خاتم باربعين الف دينار نقش عليه اسمه (٥) .
واخته عليّة بنت المهدي كانت تتخذ العصائب المكلفة بالجوهر لتستر عيها في
جبينها " فحدثت والله شيئا ما رأيت فيما ابتدعته النساء واحدثته احسن منه " (٦) .
واتخذوا القبايا من الفضة والابنوس والصندل وكلايهما من الذهب والفضة ملبسة
بالوشي والسمور والديباج والوان الحرير (٧) . واغرموا بالسباق والشطرنج والنرد (٨) ،
والصيد ، فكان المأمون يبلغ في رحلات صيده الشام (٩) . ولقد مات عيسى بن الرشيد
وهو يصيد الخنازير وقد سقط عن ظهر الدابة (١٠) . وقبله سأل السقاح ابا دلامة
حاجته فطلب كلبا يتصيد به ، ودابة يتصيد عليها ، وغلاما يصيد بالكلب ويقوده ، وجارية
تصلح له الصيد (١١) . والجاحظ يورد لنا كثيرا من الشعر في الصيد كقصيدة ابن ابي كريمة
في الكلب والصيد به (١٢) . واغرموا كذلك بالمهارشة بالديوك والكلاب واللعب بالطيور عامة (١٣)

(٧) مروج الذهب ٢٩٨ / ٨	(١) طبقات الاطباء ١٤٠ / ١
(٨) مروج الذهب ٢٩٥ / ٨ و ٣٤٨ / ٦	(٢) المستطرف ٢١١ / ١
(٩) الاغانسي ٣٥٣ / ٤٠	(٣) راجع التاج ١٥٤
(١٠) الاغانسي ١٩٠ / ١٠	(٤) راجع مروج الذهب ٢٣٤ / ٦
(١١) الاغانسي ٢٤٦ / ١٠	(٥) مروج الذهب ٣٧٦ / ٧
(١٢) الحيوان ٣٦٧ / ٢	(٦) الاغانسي ١٦٢ / ١٠
(١٣) الحيوان ٣٦٧ - ٣٦٦ / ٢	

اما مجالس غنائهم ولمههم فينقطع دونها الوصف • كانوا بالغناء مغرومين •
 بالجوارى مفتونين (١) • فلا بد ان تكون مجالسهم حافلة بضروب الفحشاء والمنكر •
 واقتدى الناس بالحكام والاغنياء في معاشهم • وغرقت القصور في اللذائذ تمنع في الارتشاف
 من رحيقها حتى تغد صوابها • وتسترسل في غيها مليسا ومأكلا ومشربا ومعاشا •
 كل هذا حمل في ثنایاه طلائع الردة الروحية التي تمثلت في حركة الزهد • مجتمع
 صاحب ماجن • راع في اللهو والترف • واقلية ناعمة مترفة باغیة تتحكم باكثريّة
 يائسة معدمة • مهیضة الجناح • وتفاوت بين الطبقات كبيره • وتباين في اساليب
 المعاش ودرجاته شاسع • فكيف يُرضي هذه الحال ذلك النفس الوادع الهادي
 من عباد الله واوليائه الصالحين ؟

(٣) - طلائع النهضة الفكرية :

كان من نتائج هذه الحياة الاجتماعية المتحضرة ازدهار الحياة الفكرية والعلمية •
 فقد شملت الفتوح الاسلامية - فيما شملت - مناطق قامت فيها مراكز العلم الكبرى
 كالاسكندرية وجنديسابور والرّها ونهيبين وحرّان وقنسرین • ولم يلبث المسلمون
 الا ~~طويلا~~ حتى نقلوا العلم التي ازدهرت في المعاهد هناك من طب ورياضيات وفلك •
 وكان قد تسرب شيء منها اليهم عن طريق الموالي قبل ذلك • ومن هذه المراكز انساب
 الفكر اليوناني والسرياني والهندي • واقبل المسلمون على النقل والترجمة أيضا اقبال •

وكان قوام تأثرهم بالفكر اليوناني اعتقادهم الراسخ " بسمو العلم اليوناني ، حتى لم يكن يخالط نفوسهم ريب في انه قد بلغ اعلى درجات اليقين " (١) . وجاز الفكر الاسلامي طور علم الكلام وبلغ طور الفلسفة . وكان جل اعتماده على مذهب افلاطون في المثل ومذهب ارسطو في العلة . وتأثر كذلك بالافلاطونية الحديثة التي اطلقوا عليها اسم " مذهب الاسكدرانيين " ويسمى الشهرستاني داعية هذا المذهب (افلوطين) " الشيخ اليوناني " (٢) ، وهو القائل بان هذا الوجود صدر عن واحد ازلي ابدى هو علة العلل لا شبيه له وهو الله . وان اول ما انبثق منه العقل ، ومنه فاضت نفس العالم او النفس الكلية ومنها جاءت الطبيعة (نظرية الانبثاق) .

ونمت فلسفة ارسطو التي قبسوا منها ونهلوا .

هذه هي الدعائم اليونانية الثلاث التي استند اليها الفكر الاسلامي وتأثر بها . فالمعتزلة مثلا قالوا بحدوث العالم واولية الزمان والحركة (٣) . وهذا مقتبس من افلاطون . وارسطو نحلوه كتباً ، ككتاب " في العالم " (٤) . وايدوا بفلسفته نظريتهم في الخلود وردوا عليه بكتب كثيرة (٥) . ووجدوا في الافلاطونية الحديثة ما يوفق بين مذاهب الفلاسفة اليونان ، فنهجوا النهج نفسه " وكان الفريق الاول من الآخذين بمذهب ارسطو مضطرين الى الوقوف موقف الرد على خصومهم

(١) دي بور ٣١
 (٢) قصة الفلسفة اليونانية ٣٣٣
 (٣) دي بور ٣٥ (الهامش)
 (٤) دي بور ٣٦
 (٥) دي بور ٣٥

والدفاع عن انفسهم . فلم يكن لهم بد ، على وفاق كانوا مع الجماعة الاسلامية ام على خلاف ، من فلسفة ملتزمة الاجزاء ، يجد فيها الانسان الحق الذي لا حق غيره . وقد اظهر علماء المسلمون فيما بعد من التقدير لكتب العلوم اليونانية مثل ما اظهر محمد (عليه الصلاة والسلام) من تقدير لكتب اليهود والنصارى المقدسة " . (١)

وحاولوا كذلك التوفيق بين افلاطون وأرسطو متمثلين باصحاب الافلاطونية الحدیثة واتجهوا الى فلسفة أرسطو الصحيحة والمدسوسة يقتبسون منها كل ما من شأنه أن يقوى الايمان " وانما فعلوا ذلك ليمهدوا السبيل لقبول آرائه العلمية " (٢) .

ومن المجارى الفكرية التي استرقدوها الفكر الهندي . يتمثل هذا في الروحانية التي اصطبغت بها نزعة الزهدة التي استحالت الى تصوف . ففكرة الفناء الروحي مثلا أصلها في " النارفانا " الهندية ، ومذهب " اليوجا " في التنسك كان له تأثير عظيم في فارس (٣) . حتى ان بعض الباحثين كغولد زيهر يرون ان المثل الاعلى للحياة عند الهنود قد تسرب الى الاسلام . ويستدل على ذلك ببهيتين من زهديات ابي العتاهية في وصفي الرجل الفاضل :

يا من ترفع للدينيا وزينتها
لئس الترفع رفع الطين بالطين
اذا أردت شريف الناس كلهم
فانظر الى ملك في زي مسكين

ويتساءل غولد زيهر بعد ذلك : " اولى هو بونا ؟ " (٤)

فقد ضمت حركة الترجمة " فيما ضمت - كثيرا من تراث الهند في الطب

والنجم والحكم والعقاقير . وهذا ابن النديم يورد قائمة باسماء بعض ما ترجم

من ذلك (٥) . وحركة الترجمة ابتدأت في الحكم الاموي ، ولكنها كانت جهودا فردية

(٤) راجع ذلك في كتاب " دراسات في الادب

الاسلامي " لمحمد احمد خلف الله

صفحة ٩٦ - ٩٧

(٥) الفهرست ٣٠٣

(١) دي بور ٣٩

(٢) دي بور ٤٠

(٣) دي بور ٩٩

غير منتظمة كجهود خالد بن يزيد في الكيمياء ، و مروان بن الحكم - عن طريق ماسرجويه - في الطب ، وعمر بن عبد العزيز الذي أوزع بترجمة بعض الكتب الطبية . بيد انها نشطت في حكم العباسيين وتعززت (١) . فالمنصور كان " اول خليفة قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم " (٢) . وهو اول خليفة ترجمت له الكتب الى العربية . من ذلك كتاب " كليلة و دمنة " و " السند هند " ، و كتب ارسطو في المنطق ، و المجسطي لبطليموس ، و كتاب اقليدس و الارتباطيقي وغيرها كثير من اليونانية و الرومية و الفهلوية و الفارسية و السريانية " و اخرجت الى الناس فنظروا فيها و تعلقوا الى علمها . و في ايامه وضع محمد بن اسحاق كتب المغازي و السير و اخبار المبتدأ . ولم تكن قبل ذلك مجموعة و لا معروفة و لا مصنفه " (٣) . ولم تكن عنايته بالطب دون عنايته بهذه العلم . فقد عهد الى جورجيس بن بختيشوع رئيس اطباء بيمارستان جند يسابور الذي استقدمه ليعالجه من مرض في معدته ، و ينقل بعض الكتب الطبية اليونانية الى العربية .

اما حكم المأمون فكان أخصب عهد الترجمة و أشدها ازدهارا ، تعددت في ايامه الفرق ، و تشعبت العقائد الدينية ، و كان المأمون ميالا بطبعه الى القياس . اقبل على مذهب المعتزلة فأغرم به و ناصره علانية ، و جاهر بآراء اصحابه و تبناها - و كانوا يسرونها خشية الفقهاء - . و كانت قضية خلق القرآن هي القضية التي استحوذت على تفكيره و اعجابه . فعقد المجالس للمناظرة ، ثم عمد الى العنف فامتحن الناس في عقيدتهم فيها . و كان يمنح المترجم ، على ما يزعّمون ،

(١) معالم الفكر العربي ٤٣

(٢) مروج الذهب ٢٩٠ / ٨

(٣) مروج الذهب ٢٩١ / ٨

زنة ما يترجمه ذهباً (١) . فاقتدى به بعض الخاصة والوجهاء في الترجمة والقراءة ، فكثرت الوراقون وباعة الكتب وانتشرت مجالس العلم . والواقع ان المأمون لم يتفرد بهذا التشجيع . فقد كان تشجيع أسلافه كذلك للعلماء فوق الرصف . فالمنصور كان يأمر لطبيبه المسيحي جورجيس بن بختيشوع بالشراب فسي مجلسه (٢) ، والرشيدي يدعو لطبيبه جبرائيل بن بختيشوع وهو يحجج في مكة فينكر عليه قم دعاءه هذا فيجيبهم : ان في صلاح بدنه صلاح الرعية ، وان في صلاح طبيبه وعافيته صلاح هذا البدن وعافيته (٣) . والمأمون يصل جبريل هذا بمليون درهم مشفوعة بالفكّر من الحنطة لما ابرأه من مرض ألمّ به (٤) ، ويقرض في مدحه الشعر (٥) . فلا غرو ان تكثرت المترجمات ويكثرت المترجمون ، في زمن المأمون خاصة ، وهو الذي " كان نجم بني العباس فسي العلم والحكمة " كما قال عنه الدميري (٦) . فقد كان شغوفاً بالكتب القديمة يقرأها ويدرسها ويقرب اليه العلماء ، ويغري اصحاب المذاهب الفكرية بالجدل والنقاش (٧) . وهذا " بيت الحكمة " الذي يرجح ان الرشيدي انشأه لجمع ما نقل من كتب الى العربية ، جعل منه المأمون مجلساً للترجمة والنسخ والدرس والتأليف خاصة ، وجعل للبيت قوماً يديره ويدبر امره (٨) .

-
- (١) راجع تاريخ التمدن الاسلامي ١٤٣ / ٣
 - (٢) طبقات الاطباء ١ / ١٢٤
 - (٣) طبقات الاطباء ١ / ١٣٠
 - (٤) طبقات الاطباء ١ / ١٢٨ - ١٢٩
 - (٥) طبقات الاطباء ١ / ١٢٧ - ١٢٨
 - (٦) حياة الحيوان ١ / ٧٢
 - (٧) مروج الذهب ٨ / ٣٠١
 - (٨) تاريخ التمدن الاسلامي ٣ / ٢٠٧ - ٢٠٨

ولا غروان نعتن حركة الترجمة هذه بحركة تأليف تدانها ازد هارا وسعة ؛
 فوسائل التشجيع التي ترقّت بها الترجمة اسهمت في تنشيط حركة التأليف ،
 وكان لصناعة الورق في ذلك يد طولى (١) . فكثرت المؤلفات في كل شيء وتفرعت
 العلوم (٢) . وكان من نتائج هذه النهضة الفكرية ان تشعبت الآراء الدينية
 وتعددت البدع ، فكثر الجدل وتباينت آراء الفقهاء والمحدثين والمشرقيين . ولم
 يكن المجتمع العباسي كله راضيا عن هذه الآراء والمباحثات الدينية والفكرية .
 فلم ير المناهضون له وسيلة يردون بها عليها اجدى من ان ينفضوا ايديهم
 منها ويعتزلوا هذا المجتمع المتلاطم فوجدوا في الزهد بغيتهم .

فخلاصة ما يوجز به وصف عصر شاعرنا اذن ، انه كان العصر الذي
 تصارعت فيه نزعات السياسة ونزعات الدين ونزعات الاجتماع ونزعات الفكر . ولعلنا
 لا نتجنس عليه لوقلنا انه عصر المتناقضات . ألم يكن عصر الشك كما كان عصر
 اليقين ؟ أ ولم يكن عهد الفتح والامجاد الحربية كما كان عهد الثورات والفتن
 الداخلية ؟ أما حفل بالزنادقة والمتشككين كما حفل بالمؤمنين والورعيين ؟
 أما سار فيه المترفون المسرفون الى جانب الفقراء المحرومين ؟ ألم تحق به جماعة
 العلماء كما ملائنه طائفة الفساق ؟ خليفة يسمع وعظ الواعظ فيبكي من خشية الله ،
 وهو نفسه بعد دقائق في مجلس اللهم يصغي الى وقع الوتر والكأس وشد القيان
 فيبكي من الطرب لا من الخشية ؟ هبات تبلغ الملايين ، وغلال تبلغ الملايين ،

(١) صبح الاعشى ٢ / ٤٧٥ - ٤٧٦
 (٢) راجع تاريخ التمدن الاسلامي ٣ / ١٧٤

وأناس ينقطع منهم النفس دون نصف درهم في اليوم • طبقة يوتى لها بالطير
والفاكهة ، ويعلف بطها بالجوز المقشر واللبن الحليب ، وطبقة تنوء بتكاليف
المعاش وتشكو شظف الحياة • محظوظ يرفع ، ومغضوب عليه يخفض • السلطان
ساخط في الصباح راض في المساء • فرق وآراء كلامية وفقها يتخرجون فيرون
في ذلك اثما وكفرا ، ويعدون الخوض في هذه الشؤون زندقة •

كان عصر الاقبال على الحياة وكان عصر الادبار من الحياة • ولقد
أبنا بعض الابانة جانب الاقبال هذا • فلنشع الآن في الكشف عن الجانب
الآخر المتمثل في الردة الروحية التي تزعمها نفر الزهاد في تلك الفترة الحافلة
العجبية • (١)

(١) كان جل الاعتماد في هذا الفصل على كتابي " تاريخ التمدن الاسلامي "
لجرجي زيدان و " ضحى الاسلام " ل احمد امين •

الردة الروحية :

بيد وأن تعايشا لاضدادها بعضها الى جانب بعض من طبيعة الحياة وسننها ، القوة وحيالها الضعف ، والثروة وازاءها الفقر . وقد ترى النملة الصغيرة تدب على مقربة من قوائم الفيل الضخم ، او الفتاة الشابة الحسناء تزف الى الشيخ الديميم ، وقد يجمع مقعد واحد بين تلميذ مفرط في الذكاء وتلميذ بالغ الغبساء . فلا بدع اذا رأينا حياة الخلاعة والمجون في هذا العصر تعترضها حياة الورع والتقوى . ولا بدع اذا كان الزهد صدى القسوق . ورب حياة ماجنة فاسدة تحمل في ثناياها جراثيم الخير وعناصر الصلاح . ففي الحياة الاموية المرحلة العابثة كان شبي من هذا القبيل . فقد كان نشاط العلماء والحركة الدينية موازيا لنشاط الماجنين واقبالهم على العبث واللغو (١) . كأن الامر " رد فعل " كما يقولون .

كان كل ما في المجتمع العباسي يحمل على الردة ويغرى الصلاح بالثورة . وقد تكون سلبية مكبوتة كما تمثلت في حركة الزهد : لا الاموال موزعة توزيعا عادلا . فقد رأينا الخليفة يسطو على الملايين ، ويحشد لها ليموزعها في لحظة طرب لشاعر او مغن . كان يصادر الاموال ويهب الاموال ، ويهدر الدم ويولي الوزارات وليس من امرئ يجروء على ان يسائل نفسه سؤال استفهام او استنكار . قال العتّابي لما سأله " لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الادب " " لاني رأيتُه يعطي عشرة

آآ في غير شي ، ويرمي من السور في غير شي ، ولا ادري اى الرجلين اكون (١) ولا الطمانينة كانت شاملة ، فقد كانت انباء الدين والشاية حرة بان تورد موارد التطف . وهذا المفضل الضبي يتأهب للموت حين يستدعيه المهدي ويحسب انه ينتوى به ما كان ينتوى بكثير من معاصريه . فاذا المهدي يحكمه في افسر بيت من الشعر قالته العرب ويجيزه بثلاثين الف درهم (٢) . فامير المؤمنين مطلق الحرية والتصرف حتى في الارواح . فقد امر المنصور بقتل الفضيل بن عمران اثر وشاية . فلما ليم في ذلك قال احدهم " هو امير المؤمنين يفعل ما يشاء وهو اعلم بما يصنع " (٣) .

كان الشعب يثن من القدر ، والحكام المترفون يثنون من ثقل الملاذ . وانك لواجد بوادر ثورة من هذا الشعب البائس المقهور على هذا الوضع في قصة محمد بن سليمان التي ذكرناها قبلا ، حينما اعترضه مجنون وهو في جنازة ابن عمه " فقال له : يا محمد أمن العدل ان تكون غلتك كل يوم مائة الف درهم وانا اطلب نصف درهم فلا اقدر عليه ؟ ثم التفت الى سوار (القاضي) فقال : " ان كان هذا عدلا فانا اكثريه " (٤) . هي الثورة اذن صراحة . بل هي اعنف من الثورة . انها الخروج على العدل وعلى الدين ان كان هذا الذي يكابده المجنون ويشكونه الى مثل العدل والدين القاضي سوار من العدل ومن الدين في شي . نصف درهم يعجز عنها رجل وآخر يبلغ دخله ثلاثة ملايين درهم ؟ وآخر يشتري بطيون درهم مصاحف

(٣) الطبرى جم ٣ ج ٩ / ٤٤٠

(٤) مروج الذهب ٢٨٩ / ٦ - ٢٩٠

(١) المستطرف ١ / ١١٠

(٢) الاغانى ١٤ / ١١٦

ليوزعها! (١) • قال شاعرني بغداد يصف الحال وسوء توزيع الاموال :

بغداد دار طبيها آخذ	نسيمها مني بانفاسي
تصلح للموسر لا لامرئ	بييت في فقر افلامين
لوحلمها قارون رب الغنى	اصبح ذا هم ووسواس
هي التي نعهد لكتها	عاجلة للطاعم الكاسي
حور وولدان ومن كل ما	تطلبه فيها سوى الناس (٢)

اقطاع ونظام طبقات وبؤس يصوره ابوالعتاهية :

اني أرى الاسعار	اسعار الرعيعة غاليه
وارى المكاسب نزره	وارى الضرورة غاشيه
وارى غموم الدهر را	ثمة تمر وفاد يه
وارى اليتامى والا را	مل في البيوت الخاليه
من بين راج لهم يزل	يسمو اليك ورا جيده
يشكون مجده باصوات	ضعاف عاليه
...	
من مصيبات جوع	تمسي وتصبح طاربه
...	
من للبطون الجائعه	ت وللجسوم العاربه

ويختم شكواه يخاطب الخليفة :

القيت اخبارا اليك	من الرعيعة شافيه (٣)
فهو احساس الشعب بانه فقير بائس جائع محروم ، وليس له الا الصبر :	
يحتاج باغي المقام بينهمو	الى ثلاث من بعد ترتيب
كوز قارون ان تكون له	وعمر نوح وصبر ايبوب (٤)

(٣) الديوان ٣٠٤
(٤) معجم البلدان ١/٦٩١ - ٦٩٢

(١) مسالك الممالك ١٤٢
(٢) معجم البلدان ١/٦٩٣

أو الزهد لما فشا فيها من فسق فهي " ضيقة على المتقين ما ينبغي لمؤمن ان يقيم فيها" (١) . فلما قيل لبشر بن الحارث ان رجلا صالحا كالامام احمد بن حنبل مقيم فيها اجاب بهرارة : " دفعتنا الضرورة الى المقام بها كما دفعت الضرورة المضطر الى أكل الميتة " (٢) . ويقول البغدادي ان غير واحد من السلف كان يكره الاقامة فيها ويدعو الى مغادرتها . " وقيل ان الفضيل بن عياض كان لا يرى الصلاة في شيء من بغداد لاجل انها عنده غضب " (٣) . وكان ينصح بالرحيل عنها : " لا تقم بها واخرج عنها فان اخبثهم مؤذنوم " (٤) . وعبدالله بن داود يقول بقطع صلة الرحم بمن اقام في بغداد ، فقد قال له رجل ان له فيها خالة فاجابه : " اقطعها قطع القاء " (٥) . وكان احد الشعراء يقول :

الزم الشفر والتعبد فيه
ان بغداد للملوك محــــل
ليس ببغداد مسكن الزهاد
ومناخ للقاري الصياد (٦)

واى منزل لعابد ذلك المنزل الذى يبيح فيه الخليفة لمخنت كابن جامع شرب النبيذ ، ويأمر عامله ان يعفيه من الحد " في ذلك ، وان يأذن له بممارسة الديوك والكلاب . فلما استنكر العامل مثل هذا الامر المنافي للشرع يصدره اليه حامي الشرع ومنقذه ، خليفة الله ، شك في الكتاب فكان جزاؤه العزل (٧) . وما لنا نلطم الرشيد في ذلك . الم يرو لنا ابو الفرج انه واخاه موسى " كانا مستهترين بالنبيذ " (٨)

-
- | | |
|---------------------|---|
| (١) تاريخ بغداد ٥/١ | (٥) تاريخ بغداد ٥/١ |
| (٢) تاريخ بغداد ٥/١ | (٦) تاريخ بغداد ٦/١ ومعجم البلدان ١٩٠/١ |
| (٣) تاريخ بغداد ٥/١ | (٧) الاغانى ٣٠٤/٦ - ٣٠٥ |
| (٤) تاريخ بغداد ٥/١ | (٨) الاغانى ١٦٠/٥ |

وجاءت الفتنة بين الامين والمأمون فكانت ضغنا على ابالة كما يقولون ، فقد ولي الامين ووكل الامر الى محمد بن عيسى بن نهيك والى الهرش ، وانصرف الى لهوه فطلب الخصيان والمهين واجرى لهم الرواتب " ونافس في ابتياع فرسه الدواب واخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك ٠٠٠ وقسم ما في بيوت الاموال وما بحضرته من الجوهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه ٠٠٠ وامر ببناء مجالس لمعزهاته ٠٠٠ " ،
 وخمس حراقات كلفته احداها ثلاثة ملايين درهم (١) . وكان الغوغاء والفساق من اتباع محمد بن عيسى يطلبون الناس ويعيشون في الارض فسادا فخرج من بغداد من استطاع " وكان احدهم اذا خرج امن على ماله ونفسه " (٢) . وكثر الخراب والحرق ورميت المدينة بالمنجنيتي وتولى القتال " باعة الطريق والسرارة واهل السجون والاباشي والطارقين واهل السوق فكانوا ينهبون اموال الناس " (٣) .
 حدث ابن الاثير ان اصحاب الامين كانوا لا يكتفون بهدم الدار ودكها بل يعمدون الى ابوابها وسقوفها فينتهبونها . (٤) فقال احد الشعراء :

لنا كل يوم ثلثة لا نسدها	يزيدون فيما يطلبون وننقصهم
اذا هدموا دارا اخذنا مقوفها	ونحن لاخرى غيرها نترسهم
فان حرصوا يوما على الشرح جهدهم	فغوغاؤنا منهم على الشراحرص

* * *

لقد افسدوا شرقي البلاد وغربها
 علينا فما ندري الى اين نخشى
 ولقد ذكر ابن الاثير ابياتا اخرى في البكاء على بغداد اثر تلك الحرب الاهلية الطاحنة (٥) .

(١) الطبري ج ٣ ج ١٠ / ١٥١ - ١٥٢

(٢) ابن الاثير ١٩٠ / ٦

(٣) ابن الاثير ١٨٩ / ٦

(٤) ابن الاثير ١٩١ / ٦

(٥) ابن الاثير ١٩٢ / ٦ . راجع ايضا ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ .

فتطوع جماعة من الصالح لدرء هذا الفساد وصدّ الزعرة والشطّار ونهجوا نهجا عمليا . تزعم حركة المقاومة هذه اثنان : احدهما يدعى خالد الدريوشي وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يرى الخروج على السلطان . والآخر سهل بن سلامة الانصاري وتتلخص دعوته في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ايضا ، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، والدعوة الى قتال من يخالفه كائنا من كان (١) .

ويقول الطبري عن قيام جملة المقاومة هذه " . . . ان فساق الحربية والشطّار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس اذى شديدا واطهروا الفسق وقطع الطريق واخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر ان يمتنع عليهم . . . ، وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون اهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك ، لا سلطان يمنعهم ولا يقدر على ذلك منهم لان السلطان كان يعترضهم وكانوا بطانته فلا يقدر ان يمنعهم من فسق يركبونه . . . وكانوا يجوبون العارة في الطرق وفي السفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا احد يعد وعليهم . . . وكان الناس منهم في بلاء عظيم . . . ثم كان آخر امرهم انهم خرجوا الى قطرل فانتهبوها علانية واخذوا المتاع والذهب والفضة والغنم والبقر والحمير وغير ذلك وادخلوها بغداد وجعلوا يبيعونها علانية . . . وجاء اهلها فاستعدوا السلطان عليهم فلم يمكنهم تعدد عليهم ، ولا يرد عليهم شيئا مما كان اخذ منهم وذلك آخر شعبان (سنة ٢٠١ هـ) فلما رأى الناس ذلك . . . وان السلطان لا يغير عليهم قام صلحاء كل رضى وكل درب فمشى بعضهم الى بعض . . . (٢) .

(١) الطبري جم ٣ ج ١٠ / ١٠١٠ وابن الاثير ٦ / ٢٤٤ - ٢٤٥

(٢) الطبري جم ٣ ج ١٠ / ١٠٠٨ - ١٠٠٩

وكان سهل قويا في دعوته فكان لا يطلق على ابراهيم بن المهدي واخوته لقباً
 الا الفساق " لم يكن لهم عنده اسم غيره " (١) . وكان يقول بقتل من يخالفه
 على الاطلاق وهذد الناس " فمن بايعني على هذا قبلته ومن خالفني قاتلته " (٢) .
 ويقول ابن خلدون ان دعوة خالد وسهل قد لاقت تأييد الناس ونصرتهم (٣) .
 فكان الذي يجيب سهلاً يشار الى بيته ببرج من جص وآجر وينصب عليه السلاح
 والمصاحف (٤) غير ان دعوتها لم تعمّر طويلاً . فقد حبسها . وسهل هذا جهز له
 ابراهيم بن المهدي عسكرياً واسره وقضى على دعوته (٥) . ويقول ابن الاثير انه
 قتله واخفى ذلك حتى لا يعلم الناس مكانه فيخرجوه (٦) . ويبدو ان كثيرين من
 طلاب الرئاسة توسلوا الى ذلك بمثل دعوة سهل هذا " يأخذون انفسهم باقامة
 الحق ولا يعرفون ما يحتاجون اليه في اقامته من العصبية " (٧) . وان منهم
 المجنون والكذاب (٨) . ولكن ابن خلدون لا يشك في دعوة خالد وسهل بل يؤكد
 صدقها ان يعزو سببها الى تفشي الفسق " فتوافر اهل الدين والصلاح على منع
 الفساق وكف عاديتهم (٩) .

-
- (١) الطبري جم ٣ ج ١٠ / ١٠٢٣
 (٢) الطبري جم ٣ ج ١٠ / ١٠١٠
 (٣) ابن خلدون ١٤٠
 (٤) الطبري جم ٣ ج ١٠ / ١٠٢٣
 (٥) ابن خلدون ١٤٠ والطبري جم ٣ ج ١٠ / ١٠٢٤ - ١٠٢٥
 (٦) ابن الاثير ٦ / ٢٤٥
 (٧) ابن خلدون ١٤٠
 (٨) ابن خلدون ١٤٠
 (٩) ابن خلدون ١٣٩

ولكن حركة الزهاد لم تكن ايجابية ولا عنيفة بهذا القدر . ففي الحين الذي يجاهر فيه سهل الخليفة بالعدوان ترى الزهاد عاكفين على التغيير من شهوات الدنيا ولذائذها . وان من المخازي ما تدرعوا لصدّه باعتزال الدنيا لا ينوهون بشره وانته كما فعل بعض الشعراء في يحيى بن اكرم قاضي البصرة ايام المأمون مثلا ، فقد كان منغمسا في الفواحش والموبقات حتى اتهمته العامة بافساد اولادهم . ولكنها كانت على كل حال لونا من الوان الثورة على الفساد وضربا من ضروب الاصلاح في اجتهاد ومنهج مختلفين . لعلمهم يتسوا " ففشلوا فلجأوا الى القناعة يروضون انفسهم عليها ، وقالوا اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون " (٢) . ولم يزهدا جميعا تورعا وانفلاتا من الفساد ، فقد كان منهم من رأى ان الشهوات سلسلة متصلة الحلقات ، وان النفس لا تكاد ترتوى من واحدة حتى تظمأ الى الاخرى . فرأوا الخير كله في قمعها اصلا . ومنهم من " يتسوا من حب او عدموا صدمة عنيفة في منصب او جاه او مال فلم يجدوا الا الزهد يركنون اليه ويأمنون به ويتسلون به عما فقدوا " (٣) . ومنهم من تزهدوا تخففا من تكاليف الدنيا والآخرة (٤) كأبراهيم بن اسحق الحرسي الذي عاش اكثر عمره على الخبز اليابس والملح ، وكان لا يدخل دارا عليها بواب (٥) .

كان هذا العصر حافلا باصناف الزهاد هؤلاء " وكما كان بشار وابونواس واضرابهما يمثلون نزعة اللهو ويضمون نارها ، كان ابوالعتاهية يعبر عن نزعة الزهد ويروي غلّة الزاهدين " (٦) . فالى اى طوائف هؤلاء الزهاد ينتمي شاعرنا ابوالعتاهية ؟ سنرى ذلك في نشأته وفي معالم الزهد في شعره .

(٤) ضحى الاسلام ١٢٨/١
 (٥) معجم الادباء ١٢٥/١ - ١٢٦
 (٦) ضحى الاسلام ١٢٨/١

(١) راجع مروج الذهب ٤٣-٤٨
 (٢) ضحى الاسلام ١٣٢/١
 (٣) ضحى الاسلام ١٣٨/١

= الفصل الثالث =

= : =

ابو العتاهية - معالم شخصيته

نسبه ونشأته :

ابو العتاهية كنيته ، اما اسمه فاسماعيل بن القاسم ، واما نسبه
فينتهي الى عنزة بالولاء من قبل ابيه ، والى بنى زهره من قبل امه
التي كانت مولاة لهم . وعتاهية لقب غلب عليه بعد ان دعاه به المهدي يوما ،
وهو يقال للرجل المتحذلق . قال الاصفهاني : " قال المهدي يوما
لابي العتاهية : انت انسان متحذلق ، معنّه ، فاستوت له من ذلك كنيّة
غلبت عليه دون اسمه وكنيته ، وسارت له في الناس . قال : ويقال للرجل
المتحذلق عتاهية ، كما يقال للرجل الطويل سناحية . ويقال : ابو عتاهية
باسقاط الالف واللام" (١) . وقيل بل لقب كذلك لانه كان يحب الشهرة والمجون
التعته (٢) .

وتتلخص انباء نشأته التي بين ايدينا في انه ولد في بلدة تدعى "عين التمر"
قرب المدينة في الحجاز . ويقول ابن خلكان : " وقيل انها من اعمال سفي الفرات .

(١) الاغانى ٢ / ٤

(٢) الاغانى ٣ / ٤

وقال ياقوت الحموي في كتابه المشترك انها قرب الانبار، والله اعلم". (١)
 والراجع ان عين التصرف في العراق هي مسقط رأسه "فانه نشأ في الكوفة والكوفة
 وعين التمركتاها من سقي العراق" (٢) . يؤيد هذا قول ياقوت عنها فسي
 معجم البلدان انها "قريبة من الانبار غربي الكوفة . . ." (٣) .
 ولا تختلف المصادر في انه نشأ نشأة فاسدة ، وضيعة (٤) . فقد كانت امه
 مولاة ، وابوه بائع جرار أو كان حجّاماً (٥) . وهذا اسمه - كما روى الاصفهاني -
 شاهد على فساد نشأته وعلى مجونه . وفي شعره اشارات كثيرة الى فضل التقى
 والعلم على الأطل والنسب . ففما لا شك فيه انه كان يحس بالضعة في اعماق نفسه .
 ولقد فطن لهذا كثير من ترجموا له ، واستشهدوا على ذلك بقوله :

الا انما التقوى هو العز والكرم	وحبك للدنيا هو الفقر والعدم
وليس على عبد تقى نقيصة	اذا صحّ التقوى وان حاك او حجم (٦)

ولعل الابيات الاتية تصور نفسيته هذه خير تصوير :

دعني من ذكر اب وجـ	ونسب يعلي بك سور المجـ
ما الفخر الا في التقى والزهد	وطاعة تعطي جنان الخلد
لا بد من ورد لاهل الـ	اما الى ضحل واما عـ (٧)

(٥) الاغاني ٤ / ٤٤ ، ٥

(٦) الاغاني ٤ / ٥

(٧) الاغاني ٤ / ٥

(١) وفيات الاعيان ١ / ١٩٨

(٢) امراء الشعر ١١٣

(٣) معجم البلدان ٣ / ٢٥٩

(٤) الاغاني ٤ / ١

ولا ندرى اذا كان له ابنة ثالثة - تلك التي يتحدث عنها صاحب "معاهد التنصيص" ام انها احدى ابنتيه المذكورتين . فقد زعم ان ابا العتاهية قال لابنته "رقية" وهو في علقته التي مات فيها ان تندبه بابيات من الشعر (١) . وليس هذا من الخطورة في حياته بحيث نتقصاه ، ولم نعر في غير هذا الكتاب على ذكر لهذه الابنة المسماة "رقية" .

اما ابن المعتز فيوافق ابا الفرج في ما قال عن ابن ابي العتاهية ، ولكنه يضيف انه كان زاهدا ناسكا وقال " وكان مع ذلك شاعرا الا انه تخلى من الدنيا " (٢) . ويقول في موضع آخر انه كان "صحيح الدين ورعا ، وولي القضاء برهة " (٣) . وتجمع الروايات على ان ابنه كان شاعرا ، وتذكر لنا من شعره شيئا (٤) ، وانه كان ناسكا زاهدا " (٥) . ولم يرد ذكر لامراته الا في "تاريخ بغداد" في معرض الحديث عن ابنه عتاهية " محمد بن ابي العتاهية لقبه عتاهية ، ويكنى ابا عبدالله ، وامه هاشمية بنت عمرو اليمامي مولى لمعن بن زائدة وكان محمد ناسكا زاهدا شاعرا " (٦) .

(١) معاهد التنصيص ٢/٢٩٩

(٢) طبقات الشعراء ٢٢٨

(٣) طبقات الشعراء ٣٦٤

(٤) راجع تاريخ بغداد ٢/٣٥٦ ، والشعر والشعراء ٢/٧٦٥ والموشح ٣٧٤ ، ٣٧٥

(٥) راجع الشعر والشعراء ٢/٧٦٥ وطبقات الشعراء ٢٢٨ وتاريخ بغداد ٢/٣٥

(٦) تاريخ بغداد ٢/٣٥

واذا كان لنا ان نستنتج من ذلك شيئا نربطه بنشأته ثم بنزعتة الى الزهد فهو ان ما فاتته من شرف القسب في امه وابيه لم يأتته في زوجته . فقد رأينا انه مولى ، وان اباؤه مولى ، وامه مولاة ، وهذه زوجته ابنة ابي مولى . ومهما يكن من امر الروايات عن بخله (١) . ومبلغها من الصحة او المبالغة فانها تعكس جانبا من نفسيته التي اکتوت بنار الفقر والحرام في مبدأ عمرها ، فهي تعرض بهذا الحرص والكثما فاتها من اقبال الدنيا ويسرها او تجد في هذا الحرص امنا بعد خوفها وقلقها الطويلين . وهذا يدخل في حساب زهده حين نمحص دوافعه التي عزاها نفر من الباحثين الى كل شيء ، خلا الاحساس الصادق بالزهد .

عقيدته :

تباينت الآراء في عقيدة ابي العتاهية . وفي "الافغاني" "طعن صريح بها ؛ " كان ابو العتاهية مذابيا في مذهبه ، يعتقد شيئا ، فاذا سمع طاعنا عليه ترك اعتقاده اياه واخذ غيره " (٢) . ويبسط الاصفهانى مذهبه فيقول " كان مذهبه ابي العتاهية القول بالتوحيد ، وان الله خلق جوهرين (٣) متضادين لا من شيء ، ثم انه بنى العالم هذه البنية منهما ، وان العالم حديث العين والصنعة لا محدث له الا الله ، وكان يزعم ان الله سيرد كل شيء الى الجوهرين المتضادين . . . ويتشيع بمذهب

(١) الافغاني ١٦٤-١٩

(٢) الافغاني ٦٤

(٣) المقصود هنا بالجوهرين المتضادين : الخير والشر .

(١)

الزيدية البترية المبتدعة . . . وكان مجبراً . . . (٢) ومثل هذا ورد في كثير من الاصول (٣) . فالواقع ان معاصريه قد شكوا في عقيدته ولكننا لم نر لهم في ذلك حجة معقولة . فمنهم (٤) من اعتمد على قوله :

اذا ما استجزت الشك في بعض ما ترى فما لا تراه الدهرامضى واجـوز

وقوله :

يا رب لو انسيتهما وهيي في جنة الفردوس لم انسهما (٥)

(١) الزيدية : " فرقة نسبت الى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، تقصر الامامة على اولاد فاطمة ولا تجيز الامامة في غيرهم . والبترية طائفة منهم اصحاب كثير النوى الا بتر ، توقفوا في امر عثمان اهو مومن ام كافر ، وفضلوا علياً على جميع الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم " (الاغانى ٦ / ٤ الهامش . راجع الملل والنحل للشهرستاني ١ / ٢٤٩ ، و ٢٦١) .

(٢) الاغانى ٥ / ٤ - ٦

(٣) راجع طبقات الشعراء ٢٢٨ ، ٣٦٤ ، وتاريخ بغداد ٦ / ٢٥٣ والشعر والشعراء ٢ / ٧٦٥ .

(٤) الشعر والشعراء ٢ / ٧٦٩ .

(٥) وردت في طبعة احمد محمد شاكر " انسا " بشكل طباعى يوحى بان حرفاً قد سقط بين السين والالف وبمراجعة طبعة ليدن اتضح انه سقط بالفعل حرف ، وهو هاء الضمير . فاعتمدنا هذه القراءة التي تتفق مع الوزن وسياق الكلام .

او :

ان الطيبــــــــــــــــك رآك احسنــــــــــــــــ خلقه ورأى جمالــــــــــــــــك
فحذا بقدره نفســــــــــــــــة حور الجنان على مثالــــــــــــــــك (١)

ومنهم من احتج بانه لا يذكر في شعره الجنة والنار ، وانما يذكر الموت فقط (٢) . ولعل

ابن المعتز كان من اشد هم اعتدالا وتوويها في الحكم عليه ، فقد قال : " ويرمى

بالزندقة مع كثرة اشعاره في الزهد والمواعظ ، وذكر الموت والحشر والنار والجننة .

والذي يصح لي انه كان ثنويا " (٣) . ولكنه يروى عن علي بن اسحاق عن الفضل المبارك

في موضع آخر ان ابا العتاهية كان " خبيث الدين يذهب مذهب الثنوية " (٤) . ولم

يعدم ابو العتاهية المدافعين . فقد حدث رجاء بن سلمة فقال : " سمعت ابا

العتاهية يقول : قرأت البارحة " عم يتساءلون " ثم قلت قصيدة احسن منها . قال :

وقد قيل ان منصور بن عمار شنع عليه بهذا " (٦) . ويروى النسائي عن ابن ابي العتاهية

ان جارة لابي العتاهية وشئت به الى حمدويه صاحب الزنادقة فقد رآته يقنت ذات ليلة

فزعمت انه يكلم القمر . فهاج حمدويه في منزلها يرقبه فراه يصلي ولم يجد عليه مأخذا .

ويعقب الراوى على القصة بحماسة المنتصر للحق يعرض بحمدويه العتي الشديد بقوله " وانصرف

حمدويه خاسئا " (٧) .

ومن الطبيعي ان يرد ابو العتاهية على هذه التهمة . ففي " الاغانى " " انه

قال : زم الناس اني زنديقي . والله ما ديني الا التوحيد . فقلنا له ، نقل شيئا

نتحدث به عندك فقال :

(٥) طبقات الشعراء ٣٦٤

(١) راجع الشعر والشعراء ٧٦٩ / ٢

(٦) الاغانى ٣٤ / ٢

(٢) الاغانى ٣٤ / ٤

(٧) الاغانى ٣٥ / ٤

(٣) طبقات الشعراء ٢٢٨

(٤) المقصود بالثنوية " هؤلاء اصحاب الاثنين الأثريين
يزعمون ان النور والظلمة ازيلان قد يمان ، بخلاف المجوس
فانهم قالوا بحدوث الظلام " (راجع الملل والنحل
للمهرستاني ٧٢ / ٢)

واى بنى آدم خالد
وكل الى ربه عائدا
- ام كيف يججده جاحد
تدل على انه واحد " (١)

الا اننا كنا بائسا
ويدؤهم كان من ربهم
فيا عجبا كيف يعصي الاله
وفي كل شيء له آية

ولا يصح عندي ، ان يعتبر هذا الشعر تنفيذا للتهمة . فقد يكون ابو العتاهية
وضعه خصيما وزعم ان آراءه فيه من صلب عقيدته ليبراً من تهمة الزندقة التي كان حسابها
عسيرا يومذاك . ولكني لا أؤيد التهمة وان يكن الرأي الحد يثا أميل الى الطعن في
اسلامه بنا على معان ظن انها تدل على الاثنيونية^(٢) في شعره وعلى الزهد - وهو من
مبادئ المانوية -^(٣) ، فان الاخذ بهذا الرأي فيه كثير من التجنسي على الرجل ،
ولا يصح قبل تحييد دقيق لهذا الشعر ولمذهب الاثنيونية .

(١) الاغانى ٣٥/٤

(٢) الاثنيونية مذهب المجوس الذين يقولون بالنور والظلمة كاصليين " اثنين مدبرين
قد يمين ، يقتسمان الخير والشر والنعيم والضرر والصلاح والفساد . ويسمون احدهما
النور والثاني الظلمة " (راجع الملل والنحل للشهرستاني ٦٠/٢)

(٣) يقول الشهرستاني عن المانوية انها المذهب المنسوب الى مانسي
الذي كان يرى ان العالم مصنوع من نور وظلمة وانهما ازليان . وانكر
وجود شيء من غير اصل قديم . وعنده ان النور والظلمة قوتان متضادتان .
ومن تعاليمه انه " فرض العشر في الاموال ، والصلوات الاربع في اليوم والليلة ،
والدعاء الى الحق ، وترك الكذب والقتل والسرقة والزنا والبخل والسحر وعبادة
الاوثان . . . " (انظر الملل والنحل ٢٢/٢ - ٨١)

وبناء على انه لا يذكر البعث في شعره ، ولا يؤمن إلا بما تقع عليه الحواس . كل هذا من مظاهر الضعف في مذهبه كما يرى بعض الباحثين (١) . إلا ان " بروكلمن " يرى " ان ما قيل عن ابي العتاهية انه لا يذكر البعث في شعره ، ولا يتكلم إلا عن الموت قول لا يستند الى اصل " (٢) . وقريب من هذا الرأي ما يقوله " نكلسون " من ان تفكير ابي العتاهية يخلو من الكفر الصريح . بيد ان في شعره نزعة فلسفية لا تتفق ولا تعبر عن المفهوم الديني الاسلامي . وكان هذا كافياً لان يعده معاصروه من العلماء ملحدًا . ويقول ايضا ان في شعر ابي العتاهية بالرغم من كل ما يقال فيه ، معاني اسلامية كالبعث والحساب ، ويستشهد بقصيده " لدا للموت . . . " (٣)

(١) الصراع بين الموالي والعرب ١٨

(٢) ورد هذا الرأي في " الصراع بين الموالي والعرب " ١٨

(٣)

Nicholson , A Literay History of the Arabs , 299 . -

وقد تبين لنا من مطالعة شعر ابي العتاهية ان " بروكلمن " محق في ما ذهب اليه .

فالواقع ان في شعر ابي العتاهية ذكراً صريحاً للبعث من ذلك قوله :

وما هي إلا رقدة غير انها	تطول على من كان فيها الى الحشر (الديوان ١٠٠)
و	
افنيت عمرك باغتـرارـك	ومنـاك فيـه وانتظـارك
ونسيت ما لا بد منـه	وكان اولـى باذـكـارك
لك ساعة تأتـيك مـن	ساعات ليلـك او نهـارك
أأخي فاذخر ما استطعت	ليوم بؤسـك وافتنـارك
فلتنزلن بمنـزل	تحتـاج فيـه الى اذخـارك (الديوان ١٢٦)

و

قلو كان هول الموت لا شي بعده
ولكنه حشرون شر وجنقة

لهان علينا الامر واحقر الامر
وناروما قد يستطيل به الخبر (الديوان ١١١)

و

الا للموت كأس اي كأس
الى كم والمعـاد الى قـرب

وانت لكأسه لا بد حاس
تذكر بالمعـاد وانت نـاس (الديوان ١٣٠)

و

د هبت من الدنيا فكيف تغرنا
والمرء يوطنها ويعلم انـه

ام كيف تخدع من تشاء فينخدع
عنها الى وطن سواها منقلع (الديوان ١٤٨)

ولكن "فايدا" يستدل انه اثبتي من ارجوزته التي اعتمد منها على هذه الابيات : (١)

واوسط واصغر واكبر	لكل شيء معدن وجوه
وساوس في الصدر منه تعتلج	من لك بالمحض وكل متمزج
اصغره متصل باكبـره	وكل شيء لاحق بجوهـره
ممزوجة الصفو بالوان القذى	ما زالت الدنيا لنا دار اذى
لذا نتاج ولذا نتاج	الخير والشر بهـا ازواج
يخبث بعض ويطيب بعض	من لك بالمحض وليس محض
خير وشر وهما ضدان	لكل انسان طبيعتـان
بينها بون بعيد جدا	والخير والشر اذا ما عـدا
الصمتان ضاقي الكلام اوسع	كذا قضى الله كيف اصنع

..% الخير والشر والصفو والكدر والمحض والمتمزج وما يتولد من المعاني التي ترجع الى النور والظلمة اللذين تدين بهما المانوية والمزديكية^(٢) ثم يترك الفصل في الحكم على ابي العتاهية ويقول " اننا لا نعلم اكان ابو العتاهية موحدا فاخذ نظرة الاثنيينة من المانوية ليستعين بها على توضيح العالم في وجهتي الخير والشر حيث تنوء احيانا

(١) الصراع بين الموالي والعرب ٩٨-٩٩ وراجع الارجوزة في ديوانه صفحة ٣٤٦
 (٢) يقول الشهرستاني ان المزديكية مذهب مزدك . وهو يشبه مذهب ماني في ان الكون قوامه النور والظلمة . ولقد احل مزدك النساء والاموال " وجعل الناس شركة فيها كما شتراكم في الماء والنار والكلاء " اعتقادا منه ان الاموال والنساء مصدر كل خصومة وعداوة ، فاشاعتهما بين الناس تعني اشاعة اسباب التوافق والتواد والقضاء على بواعث النفرة والشقاق (راجع الملل والنحل ٨٣/٢ - ٨٩) .

بالآلام واخرى تسربالمباهج • ام ان توحيدده كان قناعا يتستر به لنشر مبادئ الطانوية
كما هي طبيعة اهل هذه النحلة (١) ، وهو ما ذهب اليه " ماسينيون " الذي
اتهم بهذا التستر (٢) .

ويعد الدكتور عبد الرحمن بدوي ابا العتاهية من الشعراء الزنادقة ، ويحتج
برأى " فايدا " الذي اشرنا اليه آنفا (٣) • وليس في مقدورنا ان نفصل هنا في هذه
القضية الشائكة التي تباينت فيها آراء القدامى والمحدثين على السواء ، أدباء وباحثين
واشتطت احيانا كثيرة • ولكن يلوح لي ان شعر الرجل قد حمل فوق ما ينبغي ، وان تاريخه
الديني الذي لم يكن ليوحي بالتقوى والنور هو الباعث على هذا الشك كله • ولا
ننسى بهذه المناسبة أن ابا العتاهية مولى من اصل فارسي • وهذا يلقي بعض
النور على ما غمز في عقيدته من مبادئ دينية قد ترجع في اساسها الى الفرس •

شعره وشاعريته :

وفي بغداد انتهج شاعرنا نهجا جديدا : اطرح رداء الخمول واقبل على
الشعريته وسل به الى قصور الخلفاء والوجهاء • ولقد كان له من هذا الشعر الذي
سنرى بعد قليل انه حاز اعجاب الكثيرين من معاصريه وغير معاصريه - خير عون على
الوصول الى البلاط العباسي حيث نال الحظوة والرعاية اللتين اسبغهما عليه
ذلك المديح الذي كان ينشره على الخلفاء والوجهاء ، فانارتا حفيظة كثيرين عليه وحسد هم •

(١) راجع هذا الرأي في كتاب " الصراع بين الموالي والعرب " ١٩

(٢) راجع " الصراع بين الموالي والعرب " ١٩

(٣) انظر كتاب " من تاريخ الالحاد في الاسلام " ٣٨

فذاق مع طعم المال والجاه طعم الحسد والوشايات • ويبدو انه بالرغم من ثقافته المحدودة (١) ، استطاع بشعره ان يشق طريقه في زحمة الحاسدين والواشين ، وان يجعل لنفسه مكانة مرموقة الجانب • ولم يكن سلاحه في هذا الا شعره الذي فتح له ابواب القصور والقلوب • وشهادات كبار الادباء في هذا الشعر لا تخرج في فحواها عن الاعجاب والتقدير • فالواقع ان الرجل كان شاعرا بطبعه • قال الجاحظ :

” سمعت ابا العتاهية يقول : لو شئت ان يكون حد يثي كله شعرا موزونا لكان . . . ” (٢)

وكانت له اوزان ابتكرها - على ما يروون - لا تدخل في العروض • ولما سئل ذات مرة ” هل تعرف العروض ؟ ” اجاب اجابة الحائق على ماضيه التائر على نقصه القديم ، المدل بالقوة الجديدة التي اوتيتها ” انا اكبر من العروض ” (٣) • وقال ذات مرة :

” لو شئت ان اجعل كلامي كله شعرا لفعت ” (٤) • ولقد وصف قدرته على النظم وصفا جميلا بليغا ، فيه ذلك الادلال بهذه القوة السحرية المحدثه فيه : ” ما اردته قط الا مُقل لي فاقول ما اريد واترك ما لا اريد ” (٥) •

وواضح انه كان قادرا على النظم ، حاضر البديهة والحواسله ” . . . اطبع الناس بشار والسيك (المقصود هنا السيد الحميري) وابو العتاهية • وما قدر احد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرتهم • وكان غزير البحر ، لطيف المعاني ، سهل الالفاظ ، كثير الاقتنان ، قليل التكلف ، الا انه كثير الساقط المرذول مع ذلك • واكثر شعره في الزهد والامثال ” (٦) •

(٤) الاغاني ١٣/٤
 (٥) الاغاني ١٣/٤
 (٦) الاغاني ٢-١/٤

(١) الاغاني ٨١/٤
 (٢) البيان والتبيين ١١٥/١
 (٣) الاغاني ١٣/٤

وهذه القدرة العجيبة على النظم (التي شهد لها امثال ابي نواس وشار والجاحظ
وابي تمام (١) ، وابن المعتز (٢) ، والمسعودي (٣) ، وغيرهم كثيرون (٤) ، والتي حملت
آخرين على التعصب له كالرشيد نفسه) هي نفسها علّة ما اخذ على هذا النظم
من غثاثة . حدّث المرزباني قال : " سمعت اسحاق بن ابراهيم الموصلي يقول : أنكر
الرشيد عليّ طعني على ابي العتاهية في شعره . فقلت : يا امير المؤمنين هو اطبع
الناس ولكن ربما تحرف . اى شيء من قوله :

هو الله هو الله ولكن يغفر الله " (٥)

ويقول المرزباني في موضع آخر من الكتاب بسند عن المبرد : " كان ابو العتاهية مع
اقتداره في قول الشعر وسهولته عليه يكرعناؤه و تصاب سقطاته . وكان يلحن في
شعره ، ويركب جميع الاعاريض . وكثيرا ما يركب ما لا يخرج من العروض اذا كان مستقيم
الهاجس فمما اخطأ فيه قوله . . . " (٦)

ولعل اجمع وصف ، واعدل حكم ما قاله الاصمعي : " شعراي العتاهية
كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى (X) .
وفي "مرج الذهب " انه خرج عن العروض المعروفة في مثل قوله :

هم القاضي بيت يطرب
ما في الدنيا الا مذنب
قال القاضي لما عوتب
هذا عذر القاضي واقلب

وزنه فعُلن فعُلن اربع مرات . وقد قال قوم ان العرب لم تقل على وزن هذا :

-
- (١) راجع الاغاني ١٥ / ٤ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٧١ ،
٩٨ ، ٨٢ ، ٧٢ .
(٢) طبقات الشعراء ٢٢٩ .
(٣) تاريخ بغداد ٢٥١ / ٦ ، ٢٥٩ ، الاغاني ١٠ / ٤ .
(٤) البيان والتبيين ٥٠ / ١ ، ٨٢ ، ٣٢ .
(٥) المرجع الذهب ٢٤٥ / ٦ و ٨٧ / ٧ .
(٦) الموشح ٢٥٨ ، راجع ٢٥٦ - ٢٥٧ .
(٧) الموشح ٢٦٢ ، راجع ٢٥٥ - ٢٥٧ .
(٨) الاغاني ٤٠ / ٤ .

شعرا ولا ذكره الخليل ولا غيره من العروضيين^(١) ويقول ابن المعتز ان ابا
العتاهية جلس يوما الى قصار (محور الثياب) فسمع صوت الكديين (مدقة القصار)
فقال على ايقاعه ابياتا منها :

المنـون مغنيـات
واحد ا فواحد ا

" كأنه نظر الى القصار اخذ ثوبا بعد ثوبه فشبّهه بأخذ الموت انسانا بعد انسان
واخذ الوزن من وقع الكديين"^(٢)

(١) مروج الذهب ٨٢/٧

(٢) طبقات الشعراء ٢٢٩ - ٢٣٠ راجع هذه الرواية مختلفة بعض الشيء في الشعر

والشعراء ٧٦٦/٢ .

والواقع ان من ابرز مزايا شعراي العتاهية السهولة ولكنها سهولة قد تتسم
بالغثاثة من قوله :

هي الدنيا اذا كـلـت
وتفعل في الدين بقـوا
وتسم سرورها خذلت
كما فيمن مضى فعلت
(الديوان ٥٢)

و :

سبحان من يعطي بغير حساب
ومدبر الدنيا وجاعل اهلها
يا نفس لا تتعرضي لعطية
يا نفس هلا تعلمين فاننا
ملك الملوك ووارث الارباب
سكنا ومنزل عيث كل سحاب
الا عطية ربك الوهـاب
في دار معتمل لدار ثواب
(الديوان ٣٠)

"مولعا بالنساء" ويذكر انه احسب سعدى هذه ويورد بعض شعره فيها (١) .
والغريب ان الاصفهاني الذي افرد له في "الاغاني" صفحات طويلة (٢) لم
يعرض لحبه الا بالذكر العابر السريع . وقد قال في مقدمة كلامه عنه " يذکر
نسب ابي العتاهية واخباره سوى ما كان منها مع عتبة فانه افرد لكثرة الصنعة
في تشبيهه بها ، وانما اتسعت جدا فلم يصلح ذكرها هنا لئلا تنقطع المائة
صوت المختارة وهي تذكر في موضع آخر ان شاء الله تعالى " (٣) ، ثم قال
في خاتمة كلامه عنه " ولم اذكرها ~~هنا~~ مع اخبار ابي العتاهية اخباره مع
عتبة ، وهي من اعظم اخباره لانها طويلة وفيها اغان كثيرة . وقد طالت اخباره
ها هنا فافردتها " (٤) . ولكنه لم يفرد لها الا اذا كان يقصد بذلك ما بقى
في ثنايا الاجزاء الاخرى من ابیات في معرض حديثه عن صوت من الاصوات او من
من المغنين وكل ذلك لا يولف بالمجموع ما وصفه بالاخبار الطويلة المهمة ، ولا
يعد والاشارة العارضة (٥) .

(١) معاهد التنصيص ٢/٢٩١ . والجدير بالذكر ان ديوانه الذي بين ايدينا وهو
النسخة الوحيدة المطبوعة منه لم يذكر له شيئا من الغزل . ومثل هذا الشعر
يجده الباحث في " تاريخ بغداد ٦/٢٥٦ - ٢٥٧ " ، " زهر الآداب " ٢/٣٥ -
٣٦ ، " مروج الذهب " ٦/٢٤٦ - ٢٤٨ ، ٧/٨٣ - ٨٧ ، الخ . . .

(٢) الاغاني ٤/١١٢

(٣) الاغاني ٤/١

(٤) الاغاني ٤/١١٢

(٥) الاغاني ٥/١٦٢ - مثلا . ويكاد يكون ثابتا ان كتاب " الاغاني " الذي

بين ايدينا لم يكمل بعد . ولعلها اخباره مع عتبة في الجزء الذي لم يعثر
عليه بعد . وليس هذا ببعيد ، فان ابا الفرج ذكر في مناسبات عن عزمه الكلام
عن ابي نواس ، ثم لم نجد في ما بين ايدينا من الاغاني شيئا من ذلك . وانه
لا احتمال ببعيد ان يغفل ابو الفرج عن مثل ابي نواس .

مهما يكن من امر فقد اقر ابو الفرج بشيئين مهمين في هذا الحب : المكان
 الذي شغله من انباء شاعرنا ، وكثرة المنفعة فيه . ولو شئنا ان نستبقى الحوادث
 ونجور على ابي العتاهية قبل ان نستقوي الوقائع لقلنا ان ابا الفرج يدينه ويكذب
 حبه الذي يتصنعه ويتكلف فيه الشعر . وحكم ابي الفرج هذا جاهر به الحصرى
 بعد ذلك بنحو قرن فقال في " زهر الآداب " ان حباي العتاهية هذا
 كذب كله " وكل ذلك فيما زعم الرواة تصنع وتخلق ليذكر بذلك " (١) . ثم جاء
 الخطيب البغدادي يؤيد رأي الحصرى ويقول نقلا عن ابن ابي العتاهية " اقبل
 ابي يمدح المهدي ويجهد في الوصول اليه ، فلما تطاولت ايامه احب ان يشهر
 نفسه بامر يصل به اليه ، فلما بصر بعتبة راكبة في جمع الخدم تتصرف في
 حوائج الخلافة ، تعرض لها وامل ان يكون تولعه بها هو السبب الموصل الي
 حاجته ، وانهمك في التشبيب بها والتعرض في كل مكان لها ، والتفرد بذكرها ، واظهار
 شدة عشقها " (٢) .

وهذه الشهادة ان صحت - وليس في سياق حبه هذا ما يكذبها كما
 سرى - ففيها كل الدليل على كذب حبه . ولنصغ الى البغدادي يقص علينا هذه
 القصة عن حب شاعرنا لعتبة ندرك ان هذا الحب لم يكن اكثر من دور تمثيلي
 اتقنه ابو العتاهية كل الاتقان حتى تفصه : " . . . قلت لابي العتاهية يا
 ابا اسحاق حدثني بقصتك مع عتبة فقال لي : احذك ، قدمنا من الكوفة ثلاثة

(١) زهر الآداب ٢ / ٣٥

(٢) تاريخ بغداد ٦ / ٢٥٦

فتيان شبابا ادباء ، وليس لنا ببغداد من نقصد ، فنزلنا في غرفة بالقرب من الجسر ،
فكنا نبكر فنجلس في المسجد الذي بباب الجسر في كل غداة ، فمرت بنا يوما امرأة
راكبة معها خدم سودان ، فقلنا من هذه ؟ قالوا : خالصة ، فقال احدها :
قد عشقت خالصة ، وعمل فيها شعرا ، فاعناه عليه ، ثم لم نلبث ان مرت اخرى
راكبة معها خدم بيضان ، فقلنا من هذه ؟ فقالوا عتبة ، فقلت قد عشقت عتبة ،
فلم نزل كذلك في كل يوم الى ان التأمت لنا اشعار كثيرة ، فدفع صاحبي بشعره الى خالصة ،
ودفعت انا بشعري الى عتبة ، والحننا الحاحا شديدا ، فمرة تقبل اشعارنا ومرة تطرد . . .
وانما اردت ان اشرف بولائها . . . (١) . وهكذا اعترف ابو العتاهية بانه لم يعشق
عتبة ولكنه تصنع حبها عبثا او ادلالا بمقدرة ، او تزجية لوقت ، واقر بانه اكتب على
الشعر يقرضه فيها وينظمه جميعا حتى تم دفعه اليها . وهكذا كان حبه " جاهزا "
او " تحت الطلب " - بلغة البائعين - ! ولكن الروايات لا تقطع بكذب هذا الحب .
حتى البغدادى نفسه يتم هذه القصة التي يرويها ابو العتاهية عن نفسه فيصف لحاقه
بعتبة ذات يوم واغراءها له بالمال حتى لا يعرض لها " . . . فقلت جعلت فداك .
ما اصنع بعرض من الدنيا وانا لا اراك . وانك لتبطنين يوما واحدا عن الركوب فتضيق
بي الارض بما رحبت ، وهي تأبى الا ذكر المال حتى جعلت لي الف دينار ، فابيت وجاذبتها
مجانبة شديدة ، وقلت لو اعطيتني جميع ما يحويه الخليفة ما كانت لي فيه حاجة وانا
لا اراك بعد ان اجد السبيل الى رؤيتك " (٢) .

(١) تاريخ بغداد ٦/٢٥٤-٢٥٥

(٢) تاريخ بغداد ٦/٢٥٥

والمصادر الاخرى لا تشك في هذا الحب (١) ، وان كانت رواية المسعودي في "مروج الذهب" وهي على عهدة راويها الذي نقل عنه المسعودي ، تكاد ترجح الشك فيه . فقد روى ان المهدي هم بان يدفع الى ابي العتاهية عتبه ، فتوسلت اليه بخدمتها وحققها عنده ان يستقيها من "بائع جرار مكتسب بالشعر" ، وان المهدي رقى قلبه لها ، فاسترضى ابا العتاهية بملء برنية من ذهب ، فخرج يجادل الكتاب "يقول انما امرلي بدنانيروهم يقولون له المال داهم" . فلما رآته عتبه كذلك قالت " اما لو كنت عاشقا لعتبه لشغلت عن تمييز العين (الذهب) من الورق (الفضة) " (٢) . ولكن المسعودي يذكر روايات اخرى يستشف منها انه كان صادق الحب . وان كان منها السخيف التافه كاحتياله عليها وتنكره ليظفر بتقبيل يدها وما الى ذلك (٣) .

واراني اميل الى الطعن في هذا الحب لاسباب منها :

- ١ - انباء هذا الحب جميعا لا توحى بقصة غرام عنيف . بل لا توحى بقصة غرام اصلا . فهي قليلة اولا ، ثم غثة ، جامدة الروح ، تتكرر في الاصول جميعا .
- ٢ - باشكال وقوالب شتى . وآثار هذا الحب - لو صدق - معدومة في حياة شاعرنا . ولا محيص لهذا الغرام ، لو صح ، ان يطبع حياة ابي العتاهية بطابع خاص ينبي عنه نبأ من انبائه ، ولكن انباءه كلها في ذلك سواء .

(١) راجع العوشى ٥٤/١ مثلا

(٢) مروج الذهب ٦/٢٤٠ - ٢٤٤ وفيات الاعيان ١/١٩٩

(٣) مروج الذهب ٦/٢٤٨ - ٢٤٩ ، تاريخ بغداد ٦/٢٥٤ - ٢٥٥

٢ - في رواية ابي العتاهية نفسه عن حبه لها وحب زميله لخالصة ، وفي رواية
ابنه - وهما راجحان عندي لجميع قرائن هذا الحب - ما يوكده بطولان
عشقه .

٣ - لو فرضنا انه كان متيماً معموداً ، فبسم نفس خلو غزله (وهو الشاعر البارح
المطبوع) من الحرارة والعاطفة ؟ واي شيء من صدق الحب واضطراب العاطفة
قوله :

راعني يا زيد صوت الغراب	بحذارى للبين من احبابي
يا بلائي ويا ثقل احسا	نسي وتعمسي لطائر نعاب
انصح البين بالنعيب وما انصح	لي في نعيه بالايــــــــــــــــاب
فاستهلت مدا معي جزءاً من	ء بد مع ينهل بالتعكــــــــاب
ومنعت الرقاد حتى كأنني	ارمد العين او كحلت بهــــــــاب
قلت للقلب ان طوي رحيل معــــــــــــــــدي	لهواه البعيد بالانــــــــاب
انت مثل الذي يفر من القطــــــــــــــــر	حذار الندى الى الميــــــــزاب (١)

معان ترصف ، وكلمات ترص : جسم بلا روح . واذنا قلنا انها ابيات في سعدى
وليست في عتبة التي ملكت عليه لبه كما شهر عنه ، والتي خاض في امرها وامره الرواة
حتى الفوا فيما الفوا من كتب العشق " كتاب ابي العتاهية وعتب " (٢) ، فلنصف
اليه يقول في عتبة :

يا عتب مالي ولك	يا ليتني لــــم ارك
ملكنتي فانت هكــــــــــــــــي	ما شئت ان تنتهكــــــــــــــــي
ابيت ليلي سا هــــــــــــــــرا	ارعى نجم الفلــــــــــــــــك
مفترشا جمر الغضــــــــــــــــي	ملتحفاً بالحســــــــــــــــك (٣)

(١) تاريخ بغداد ٦ / ٢٥٦

(٢) الفهرست ٣٠٦ - ٣٠٧

(٣) مروج الذهب ٧ / ٨٤

زهرة منورة ولكن لا عبق فيها ولا اريج • واحاسيس عادية رخيصة :

اخلاى بي شجو وليس بكم شجو
 رأيت الهوى جمر الغضى غير انه
 اذاب الهوى جسدي وعظمي وقوتي
 وما من حبيب نال ممن يحبه
 واني لنائي الطرف من دون خلتي
 لها دون اخواني واهل مودتي

او :

من لم يذق لصبابة طعمها
 اني منحت مودتي سكنا
 يا عتب ما ابقيت من جسدي
 يا عتب ما انا من صنيعك بي
 ان الذي لم يدر ما كلف
 فلقد احطت بطعمها علمها
 فرأيته قد عدها جرما
 لحما ولا ابقيت لي عظما
 اعنى ولكن الهوى اعنى
 ليرى على وجهي به رسما (٢)

والشاعر العاشق قد يعدم كل وسيلة يبث بها عشقه الا شعره • فابن العاطفة

وابن العشق في هذا الشعر، بل النظم ؟ وبعد ، فليس ببعيد ان يكون هذا
 الحب وسيلة تدرع بها ابوالعناهية ليشهر وتفتح له ابواب الخليفة • فقد سمعنا
 قول ابنه قبل قليل ان اباه ابتغى بحبه لعتبة - وقد رأى منزلتها في قصر
 المهدي - ان يبلغ اهدافه البعيدة • وليس مما يجافي المنطق في شيء ان يزعم زاعم
 انه قصد من وراء هذا الحب المزيف اثاره ضجة حول اسمه ليشهر ويعرف • ونحن نعلم
 ان صلته بالخلفاء بدأت بالمهدي ، اول ما بدأت ، بعد ان توجه الى بغداد ، وان عتبة

(١) مروج الذهب ٧ / ٨٤-٨٥

(٢) مروج الذهب ٧ / ٨٦-٨٧

هذه جارية المهدي الاثيرة عنده . وفي " زهر الآداب " ان المهدي غضب
 لما بلغه ان ابا العتاهية يشبب بعتبة فصره مائة سوط وقال " أبسي
 يتمرس ولحرمي يتعرض وينسائي يعبث ؟ ونفاه الى الكوفة " (١) وقد قال المسعودي
 قبله شيئاً بهذا المعنى : " وذكر جماعة من حملة الآثار والناقلين للاخبار
 ان ابا العتاهية لما اكثر تشبيهه بعتبة جارية الخيزران شكّت الى سيدتها ما
 يلحقها من الشناعة . ودخل المهدي وهي تبكي بين يدي سيدتها فسألها عن
 خبرها فاخبرته فامر باحضار ابي العتاهية فادخل اليه . فلما وقف بين يديه
 قال له انت القائل في عتبة :

الله بيني وبين مولاتي أبدت لي الصد واللامات

وهي وصلتك حتى تشكو صدها عنك ؟ قال : يا امير المؤمنين ما قلت ذاك . بل
 انا الذي اقول ثم سأله عن اشياء ، فأفحم ابا العتاهية في الجواب ، فجلد
 نحواً من حدّ . واخرج مجلوداً فلقيته عتبة وهو على تلك الحال فقال :

بخ بخ يا عتب من اجلكم قد قتل المهدي فيكم قتيلاً " (٢)

وفي " الاغانسي " انه حبس بسبب تشبيهه بها (٣) . و ابا العتاهية يعترف بمكانة
 عتبة من المهدي لما شبب بها بقوله :

الا ان ظبياً للخليفة صانسي وما لي على ظبي الخليفة من عدوى (٤)

(١) زهر الآداب ٣٦/٢-٣٧

(٢) مروج الذهب ٢٤٠/٦-٢٤٣

(٣) الاغانسي ١٦٢/٥

(٤) زهر الآداب ٣٦/٢

ونحن نعلم انه كان مولعا بالنساء (١) . فلم لا يكون هذا الحب صبوة ، او نزوة شاب
ابتغى به المتعة والشهرة معا ؟ ولا يفوتنا في هذا المقام ان ننوه بيد الرواة التي
عملت عملها وحاكت كثيرا في اخبار حبه حتى وصلتنا مضخمة بهذا الشكل .

زهدده وآخر امره :

ونأتي الآن الى تزهدده الذي تباينت فيه الآراء . ولن نفيض في الكلام عنه
هنا ، لان موضع ذلك فصل خاص تال . وحسبنا حتى تستقيم صورته في اذهاننا ، ان
نشير الى انه ختم حياته بالنسك . وليس هذا محل خلاف . فهو امر مفروغ منه .
ولكن الخلاف في صدق هذا النسك وفي واقعه . فمن الناس من رده الى فشله
في حبيعية (٢) . وسنرى في بحثنا عن زهدده ان هذا تأويل خاطيء ، ما دام هذا
الحب مشكوكا في صدقه . ومنهم من زعم انه رأى في منامه آتيا اتاه فلامه على قوله
في عتبة :

الله بيني وبين مولاتي ابدت لي الهد والملمات

وقال : " ما اصبحت احدا تدخله بينك وبين عتبة يحكم لك عليها بالمعصية الا الله
تعالى ؟ فانتبهت مذعورا وتبت الى الله تعالى من ساعتى من قول الغزل " (٣) .
ولكنه لم يتبع قول الغزل . فقد قاله بعد ان حبسه الرشيد وضربه عقابا له
على تركه اياه (٤) . ثم ان هذه الرواية واهنة ، واضحة فيها الصنعة .

(٣) تاريخ بغداد ٦ / ٢٥٨

(١) معاهد التنصيص ٢ / ٢٩١

(٤) الاغانى ٤ / ٦٣-٦٤

(٢) مروج الذهب ٦ / ٣٣٣-٣٣٦

وليس في الاصول اشارة معقولة تعلق زهده ، تخرج في فحواها عن مثل هذه

الاشارات • ولكن الشك في هذا الزهد قديم • فسلم الخاسر يعدة رياء ويقول فيه :

ما اقبح التزهيد من واعظ	يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقا	اضحى وامسى بيته المسجد
ورفض الدنيا ولم يلقها	ولم يكن يسعى ويسترفد (١)

اذن فابو العتاهية لم يرفض الدنيا شأن الزاهدين • ولكنه ظل متمسكا بها ،

مقبلا عليها • وقد قال المعري متهمًا :

الله ينقل من شأنا	رتبة بعد رتبة
ابدى العتاهي نسكنا	وتأب عن حب عتبه (٢)

فنشأته الماجنة وتمسكه بالدنيا (يمثل هذا في حرصه وبخله وتكسبه بشعره)

جميع هذا حمل نغرا من الباحثين على الشك في زهده •

وفاته : _____

بقي ان نقول كلمة حول وفاة ابي العتاهية • والروايات جميعا لا تذكر سببا خاصا لموته ، مما يحمل على الظن انه مات ميتة طبيعية • انما هناك خلاف يسير حول تاريخ هذه الوفاة • وهي على كل حال لا تخرج فيما يجوزون عن الفترة فيما بين ٢٠٥ - ٢١٢ للهجرة •

(١) معجم الادباء ٢٣٩ / ١١

(٢) اللزوميات ١٠٩ / ١

- ولقد ارتأينا تسهيلا للبحث ، ان نذكر هذه الروايات بحسب اختلاف التواريخ .
وامامنا خمس روايات : الاولى سنة ٢٠٥ ويتفرد بذكرها ابن قتيبة (١) ، والثانية
سنة ٢٠٩ وقد وردت في " الاغانى " (٢) عن اسماعيل ابي ابي قتيبة ، والثالثة
سنة ٢١٠ وقد وردت ايضا في " الاغانى " (٣) بسند عن ابن ابي العتاهية ، والرواية
الرابعة تقول انها سنة ٢١١ ويؤيدها كل من الطبرى (٤) (المتوفى سنة ٣١٠ هـ)
والمسعودى (٥) (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) ، والاصفهانى (٦) (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ)
الذى ذكرها مع روايات اخرى . والبغدادى (٧) (المتوفى سنة ٤٦٣ هـ) ، وابن خلكان (٨)
(المتوفى سنة ٦٨١ هـ) ، والياقعى (٩) (المتوفى سنة ٧٦٨ هـ) ، وابن كثير (١٠)
(المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) ، والعباسى (١١) (المتوفى سنة ٩٦٣ هـ) ، وابن العماد الحنبلى (١٢)
(المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ) . ولعل المتأخرين من هؤلاء نقلوا عن سبقهم . والرواية الخامسة

-
- | | |
|--------------------------|------------------------------|
| (١) الشعر والشعراء ٧٦٩/٢ | (٧) تاريخ بغداد ٢٦٠/٦ |
| (٢) الاغانى ١١١/٤ | (٨) وفيات الاعيان ٢٠٠/١ |
| (٣) الاغانى ١١١/٤ | (٩) مرآة الجنان ٤٩/٢ |
| (٤) الطبرى ج ٣ ج ١٠٩٨/١٠ | (١٠) البداية والنهاية ٢٦٦/١٠ |
| (٥) مروج الذهب ٨١/٧ | (١١) معاهد التنصيص ٣٠٠/٢ |
| (٦) الاغانى ١١١/٤ | (١٢) شذرات الذهب ٢٥/٢ |

تقول انها حدثت سنة ٢١٣ . وقد ذكرها الاصفهاني (١) ، وابن النديم (٢) ،
والبغدادى (٣) ، وابن خلكان (٤) ، والعباسي (٥) ، وابن كثير (٦) .

ولقد لاحظنا ان بعض المصادر ذكرت روايات متعددة عن تاريخ هذه الوفاة .
ففي "الاغاني" اربع روايات هي : ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ . وفي "تاريخ بغداد" (٧)
روايتان : ٢١١ ، ٢١٣ (٨) ، وفي "وفيات الاعيان" روايتان ايضا : ٢١١ ، ٢١٣ (٩)
ثم في "البداية والنهاية" (١٠) ، ٢١٣ ، وفي "معاهد التنصيص" (١١)
كذلك .

ولولا ان ابن قتيبة اقدم هؤلاء جميعا (توفي سنة ٢٧٦ هـ) ، لما توقعنا عند
روايته التي لم يشركه في ذكرها احد (٢٠٥) . فقد عز علينا الدليل الذي يصلح لان
يدعم هذه الرواية . أما الرواية القائلة بانه توفي سنة ٢٠٩ فهي كذلك وحيث
لم نعر على ما يؤيدها في ما وقعنا عليه من اخبار ابي العتاهية . والحكم فيها كالحكم
في رواية ابن قتيبة .

أما رواية ابن عسلي تقول بان شاعرنا توفي سنة ٢١٠ فدعاهم الكبري انها شهادة ابنه .

(٧) راجع الاغاني ١١٠/٤-١١١
(٨) تاريخ بغداد ٢٦٠/٢
(٩) وفيات الاعيان ٢٠٠/٤
(١٠) البداية والنهاية ١٠/٢٦٦
(١١) معاهد التنصيص ٢/٣٠٠

(١) الاغاني ١٠/٤
(٢) الفهرست ٦٨ (ذكر ابن النديم انه ألف هذا الكتاب سنة ٢٧٧ هـ)
(٣) تاريخ بغداد ٢٦٠/٢
(٤) وفيات الاعيان ١/٢٠٠
(٥) معاهد التنصيص ٢/٣٠٠
(٦) البداية والنهاية ١٠/٢٦٦

بقي امامنا احتمالان : ٢١١ ، ٢١٣ • اما سنة ٢١١ فقد ذكرها القداما

امثال الطبرى الثقة والحجة في التاريخ • واما سنة ٢١٣ فالذين قالوا بها متأخرون

بالنسبة الى الطبرى • ثم ان منهم من شك فيها بدليل بدئه بذكر سنة ٢١١ ^{أولا}

ثم سنة ٢١٣ قائلا " وقيل ثلاث عشرة ومائتين " (١) •

وهكذا نرى اننا ازا تاريخين راجحين : ٢١٠ ، ٢١١ • وقد يكون الفرق

بينهما شهرا قليلة لا توجب عناء التمحيص والتحري • ومهما يكن من امره فقد

كما نأخذ برواية ٢١٠ المنسوبة الى ابنه - وهي احق الروايات - بالدرس والقبول -

لولا انها لم ترد الا في " الاغانى " الى جانب روايات اخرى : " اخبرني الصولسي

عن محمد بن موسى عن ابي محمد الشيبانسي عن محمد بن ابي العتاهية : ان اباه

توفي سنة عشر ومائتين " (٢) • فنحن اذن محقون في ايثار سنة ٢١١ عليها لاسباب :

- ان مصدرها الاول الطبرى وهو قد يسم وموثوق •

- انها وردت في غيره من الاصول بشكل يدل على انها قورنت بخيرها فرجحت •

- لم يقم عندنا الدليل على صحة سند رواية ٢١٠ الى ابنه •

- بين رواية ابنه ورواية الطبرى فرق يسير على كل حال • وما دامت رواية

الطبرى اثبتت من وجهة نظر التاريخ فهي احق بالقبول •

وعلى كل فليس في ما وقع بين يدينا من انباء ابي العتاهية ما يوضح هذه القضية كل

• الايضاح

(١) راجع البداية والنهاية ١٠/٢٦٦ ومعاهد التنصيص ٢/٣٠٠

(٢) الاغانى ٤/١١١

- الباب الثاني -

- : -

معالم الزهد في شعر ابي العتاهية

- - - - -

- الفصل الاول -

الزهد قبل ابي العتاهية

النزعة الزهدية قبل الاسلام :

الزهد ، نزعة ومعرا ، اقدم من ابي العتاهية بكثير . ففي الجاهلية كان نمط زهد او نوع من التمسك . ويستدل زكي مبارك (١) على ذلك بلفظة الديان ، وهي تعني المتسك في الدين ، ومثلها الرثاني اللتين عرفتا في الجاهلية . حتى ان الامام البويطي وصف بانه كان اماما رانيا زاهدا . والرهبان الذين عرفوا في الجاهلية فسروا في القرآن بالزهاد . ويؤيد زكي مبارك رأيه بصيام الابد الذي كان ذائعا في الجاهلية ~~يقول~~ يقول الرسول عليه السلام " لا صام من صام الابد " . ولولا انه كان معروفا في الجاهلية لما نهى عنه الرسول ، وبالاديرة ، فيروي من " معجم البلدان " ان حنظلة بن ابي عفراء الذي نسك في الجاهلية وتنصر بنى ديرا عرف باسمه . وينقل من " تاريخ بغداد "

(١) راجع التصوف الاسلامي ٥٢/١ - ٥٤ (وقد لخصنا ذلك هنا)

ان هارون المذكور في قوله تعالى " يا اخت هارون . . . " كان رجلاً صالحاً في بني اسرائيل . " والصلاح هنا هو التمسك ، واخت هارون هي مريم وكانت بارض موصولة بالبلاء العربية " (١) . ويقول ان من زهادهم من لبس الصوف ، ويحتج بقول عبدالله بن شداد " اربح من كن فيه برى من الكبتر ، من اعتقل البعير وركب الحمار ، ولبس الصوف ، واجاب دعوة الرجل الدين " (٢) . وقد كان مكتوباً على دهرهنة المشهور :

بديث شاه البيعة الراهب
وعنبر يقطبه القاطب
لم يجب للصوف لهم جائب

ان بني المنذر عام انقضوا
تنفح بالمسك ذفارهم
والقز والكتان اثوابهم

" ومعنى هذا ان لبس الصوف كان يعيب المياسير " (٣) . ومعناه كذلك ان الصوف والاديرة والانقطاع للعبادة كانت كلها معروفة . وحسبنا ان نذكر في هذا المقام اسماً امثال ورقية بن نوفل ، وزيد بن عمرو ، واميه بن ابي الصلت من حكماء الجاهلية ، لندرك ان النزعة الزهدية كانت موجودة في الجاهلية . اما ورقية بن نوفل فهو " احد من اعتزل عبادة الاوثان في الجاهلية وطلب الدين وقرأ الكتب وامتنع من أكل ذبائح الاوثان " (٤) . وهو ابن عم السيدة خديجة زوج النبي الاولى الذي بشر النبي برسالته (٥) . وهو الذي وصفه النبي بقوله " قد

(٤) الاغانى ٣ / ١١٩

(٥) الاغانى ٣ / ١٢٠

(١) التصوف الاسلامي ١ / ٥٣

(٢) التصوف الاسلامي ١ / ٥٧

(٣) التصوف الاسلامي ١ / ٥٦

رأيته في المنام كأن عليه ثيابا بيضا ، فقد اظن ان لو كان من اهل النار لم ار عليه
البياض " (١) . وهو الذي نهى الرسول عن سبه (٢) . ولورقة هذا شعر
ديني فيه نفحة من الزهد يروي منه صاحب الاغانى :

لقد نصحت لا قوام وقلت لهم	انا النذير فلا يفرركم احد
لا تعبدن الهما غير خالقكم	فان دعوكم فقولوا بيننا حد
سبحان ذى العرش سبحانا نعوذ به	وقبل قد سبح الجودى والجهد
مسخر كل ما تحت السماء له	لا ينبغي ان يناوى ملكه احد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته	يبقى الآله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه	والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان اذ دان الشعوب له	والجن والانس تجرى بينها البرد (٣)

اما زيد بن عمرو فيقول عنه الاصفهاني انه " احد من اعتزل عبادة الاوثان وامتنع من
أكل ذبائحهم . وكان يقول : يا معشر قريش ، ايرسل الله قطر السماء ، وينبت بقل الارض ،
ويخلق السائمة فترضى فيه وتذبحوها لغيره ؟ والله ما اعلم على ظهر الارض احدا على دين
ابراهيم غيرى " (٤) . وله شعر روي بغاير النزعة المادية التي طغت في الجاهلية :

ألم تعلم بان الله افنى	رجالا كان شأنهم الفجور
وابقى آخرين ببسوقهم	فيربو منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يومنا	كما يتروح الغصن النضير (٥)

واميه بن ابي الصلت " قد نظر في الكتب وقرأها ، ولبس المسوح تعبدا ، وكان ممن
ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية ، وحرم الخمر وشك في الاوثان ، وكان محققا ، والتمس

(٤) الاغانى ١٢٣ / ٣

(٥) الاغانى ١٢٥ / ٣

(١) الاغانى ١١٩ / ٣

(٢) الاغانى ١٢٢ / ٣

(٣) الاغانى ١٢١ / ٣

- الدين وطمع في النبوة ، لانه قرأ في الكتابان نبيا يبعث من العرب فكان يرجوان يكونه " (١) .
وسنرى شيئا من شعره الزهدى او الديني حين نشعر في الكلام عن ظلال هذه النزعة
الزهدية في ادب بعض هؤلاء الجاهليين . وهذه النزعة تنتظمها ثلاث فكر رئيسية :

١ - تقلب الدهر والاعتبار بالماضي : كما في قول امية بن ابي الصلت :

وبينا الفتى فيها مهيب مسود
واصبح من ترب القبور يوسود

ولا تك من غره البيع او غمد
وفيها عدو كاشح الصدر يوقد (٢)

وحالات دنيا لا تدم لاهلها
اذ انقلبت عنه وزال نعيمها
...

فكن خائفا للموت والبعث بعده
فانك في دنيا غرور لاهلها

وشبيه بهذا قول عمرو بن قميئة :

ومن نصر ذوو نعيم
فغنوا فناء اوائل الامم
او دائما لكم ولم يندم
أصناع من عاد وممن أم (٣)

قد كان من غسان قبلك امم
فتتوجوا ملكا لهم همم
لا تحسبن الدهر مخلدكم
لو دام ، دام لتبع وذوى الـ

او قول زهير بن ابي سلمى :

ولا خالد الا الجبال الرواسيا

واهلك لقمان بن عاد وعاد يسا
فتتركه الايام وهي كما هيا
من العيش لو ان امرا كان ناجيا
بارسانهن والحصان الحواليسا

الا لا ارى على الحوادث باقيا
...

ألم تر ان الله اهلك تبعنا
الا لا ارى ذماما اصبحت به
الم تر للنعمان كان بنجوة
فان الذين كان يعطي جياده

منيته لما رأوا انها هيا (٤)

رأيتهم لم يشركوا بنفوسهم

(٣) الديوان ٦٤

(٤) الديوان ٢٨٨ - ٢٩٠

(١) الاغانى ١٢٢ / ٤

(٢) الديوان ٢٩

٢ - جبروت الموت :

استمع الى عدى بن زيد :

ليس للمرء عصرة من وقـاع	٢	الدهر تغني عنه سنام عنـاق	٢
قد تبينت في الخطوب التسي	٢	قبلي فما بعدها الى اليمـ باقي	٢
...			
لا يعرّي رب المنون ذوى العيش	٢	ولا من حياته برمـاق	٢
كل حي تقوده كف هـاك	٢	جر عين يغشيه ما هو لاقـي (١)	٢

والاعشى :

ومر الليالي كل وقت وساعة		يزعزعن ملكا او يباعدن دانيا	
وردن على داود حتى أبدته		وكان يغادى العيش اخضر صافيا	
ولقمان قد حاولن اتلاف نفسه		وكان مقيط لا يخاف الداهيا	
وحطت باسباب لها مستمرة		اذينة في محراب تد مرثاويا	
وتبع قد صبت عليه بصيرة		يقطع الثنايا لا تهاب القيايا	
...			
فلو كان شيء خالدا غير رينا		لكان لها من سائر الناس واليا (٢)	

ولبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع		وتبقى الجبال بعدنا والمصانع	
وما المرء الا كالشهاب وضوءه		يحور رمادا بعد ان هو ساطع (٣)	

٣ - اليأس من الحياة :

وهذه النظرة هي بنت النظرتين السابقتين . يتمثل هذا

في مثل ابيات الممزق العبدى :			
ولو كنت في بيت تصد خصاصه		حوالي من ابنا بكرة مجلس	
ولو كان عندي حازبان وكاهن		وعلق انجاما على المنجس	
اذن لا تنسى حيث كنت منيتسي		يخب بها هاد الي معـرس (٤)	

(٣) حماسة البحترى ١١٩

(٤) حماسة البحترى ١٣٩

(١) حماسة البحترى ١٤٠

(٢) حماسة البحترى ١٢٨

او عمرو بن الاثم التميمي :

تطاوطني يوم جد يد وليد
اذ ما سلخت الشهر أهلت مثله

او زهير بن ابي سلمى :

سلمت تكاليف الحياة ومن يعيش
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
...

ومن هاب اسباب المنايا ينلنه

هما بلياً جسمي وكل فتى بال
كفى قاتلا سلخي الشهور واهلالي (١)

ثمانين حولاً لا ابا لك يسلم
تمته ومن تخلى يعمر فيه رم

ولو نال اسباب السماء بسلم (٢)

ومثل هذه المعاني التي تنطوي على نزعة من نزعات الزهد كثيرة ، ولكنها متفرقة ،
يسوقها قائلها بأساً من الحياة او ترهيباً بالموت كما في هذه الابيات . وقد رأينا ان نكتفي
بهذا القدر منها خشية الاسهاب .

اذن فنزعة الزهد في الحياة العربية وفي الادب العربي ، كانت قبل ابي العتاهية
بزمان بعيد . ومن الخير لنا الآن ، بعد ان القينا نظرة خاطفة جداً على بعض مظاهر
هذه النزعة في الجاهلية ، وفي ادبها بوجه خاص ، ان نلقي نظرة اوسع على تطور هذه
النزعة في الاسلام .

النزعة الزهدية في صدر الاسلام :

تباينت الآراء في موقف الاسلام من الزهد . فمن الباحثين من زعم ان الزهد من طبيعة
الاسلام ، اعتماداً على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي تحض على ابتغاء الحياة الآخرة ،

(١) حماسة البحتري ١٣٣

(٢) الديوان ٣٠ / ٢٩

والاعراض عن الدنيا : " العال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا " (١) " ليكلا ^{لدي} تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور " (٢) . " من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون . اولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا فيها يعملون " (٣) . او قول الرسول عليه السلام : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " (٤) . و " كن في الدنيا كأنك غريب او عابر سبيل " (٥) و " موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها . ولغدوة في سبيل الله او روحة خير من الدنيا وما فيها " (٦) و " اللهم لا عيش الا عيش الآخرة " (٧) . وجاء في " العقد " ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الزهد في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة (والرغبة في الدنيا مفتاح الزهد في الآخرة) " (٨) . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله من ازهد الناس في الدنيا ؟ قال : من لم ينس المقابر والبلى ، وآثر ما يبقى على ما يفنى وعد نفسه مع الموتى " (٩) . ومثل ذلك كثير في الآيات والاحاديث التي تتعمم منها قوم رُوح الزهد في الاسلام . والواقع اننا يجب ان نفصل بين الاسلام والمسلمين ، اى بين حياة

- | | |
|--------------------------|--------------------------|
| (١) سورة الكهف الآية ٤٦ | (٦) صحيح البخارى ١٧٠ / ٧ |
| (٢) سورة الحديد = ٢٣ | (٧) صحيح البخارى ١٧٠ / ٧ |
| (٣) سورة هود = ١٥-١٦ | (٨) العقد الفريد ١٧٢ / ٣ |
| (٤) العقد الفريد ١٧٢ / ٣ | (٩) العقد الفريد ١٧١ / ٣ |
| (٥) صحيح البخارى ١٧٠ / ٧ | |

بعض المسلمين الاتقياء الرعيسين ، وبين ما شرعه لهم الاسلام . فاذا قال ابو هريرة
 " الله الذي لا آله الا هو ان كنت لاعتمد بكهدي على الارض من الجوع ، وان كنت
 لاشد الحجر على بطني من الجوع " (١) ، حق لنا ان نتساءل : هل شرع الاسلام الجوع
 وأمرأبا هريرة بأن يكبده ويستعين بالحجر يشده على بطنه ماسكا لنفسه ؟ بديهي
 ان الاسلام لم يأمر بالجوع ، وانما هو نهج اخذ به ابو هريرة نفسه افراطا في التذلل لله ،
 اولعله كان ذا عسرة فلم يتهيا له الشبع . المهم ان نعلم انه الى جانب تلك الآيات
 التي تحمل معنى من معاني التزهيد في اللذائذ آيات اخرى تدعو دعوة صريحة الى الاستمتاع
 بالدينا : " يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ، ولا تعتدوا ان الله
 لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون " (٢)
 ولكن بقصد وعدل " وكلوا واشربوا ولا تسرفوا " (٣) . ولكن حياة المسلمين الاوليين
 البسيطة المتقشفة كانت تشجع ذوى الميول الزهدية . فالزهد الذي نما في عهد الرسول
 (والرسول لم يقل بهجر الدنيا ، حتى ان لفظه الزهد لم ترد سوى مرة واحدة في القرآن في
 سورة " يوسف " - وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) كان
 معروفا في الجاهلية (٤) .

(١) صحيح البخارى ١٧١ / ٧

(٢) سورة المائدة الآية ٨٧-٨٨

(٣) سورة الاعراف الآية ٣١

(٤) راجع Nicholson, ^{in the} Encyclopaedia of Religion and Ethics, (art. Ascetism - Muslim -)

مثل هذا الرأى في ان الزهد ليس من الاسلام يقول به " دوزى " في كتابه :

(فاتي ان السم بالزهد في العصر الاموي والقرن الثاني الهجري ، فاستدركت ذلك هنا بكتابة هذا الفصل) .

مقدمات الزهد في العصر

بذور الزهد الاولى انما ذرت في القرن الاول - فيما يرى " غولد زيهر " - (١) بتأثير عاملين اساسيين هما : المبالغة في الشعور بالاثم ، والخوف من عقاب الله وعذاب الآخرة . ولقد كان في هذا القرن ما يشجع الزهد الشيء الكثير : حروب اهلية دامية ، وفرق سياسية متطاحنة - من قيام حزب الزبيريين ومقتل ابن الزبير الى الحرب بين قبائل كلب وقيس ، فتورة المختار ، ومصراع الحسين ومأساة كربلاء ، وثورة الخوارج ، - وتطور في المجتمع ادى الى الاغراق في المجون والاقبال على الملذات ، واستبداد الحكام وجورهم . كل هذا حمل فريقا من الناس على أن ينفروا من الدنيا ويتجهوا بقلوبهم واذهانهم الى الآخرة . واشتدت هذه النزعة " الهروبية " حتى انقلبت الى زهد - فيما بعد - ما زال يتطور تدريجا حتى بات تصوقا . والحسن البصري نفسه " الذي يمكن اعتباره مؤسسا لمدرسة البصرة في الزهد والتصوف " (٢) يعده الصوفية واحدا منهم (٣) . فالحسن يعتبر " رد فعل " لهذه الحياة المضطربة ، اذ القى في نفوس الناس الرعب من الآخرة ، وزين لهم التقوى ، وحملهم على ان ينظروا في غير ما ينظرون فيه من توافه الحياة الباطلة الزائلة : " هناك مجلس الحسن البصري تسوده رهبة ذلك الزاهد الجليل وهو يلقي مواعظه الضارسة في فيافي الزهد فيستدر الدمع من مآقي الحاضرين ، او يستحيل الى مجلس ذكر تتردد فيه الاذكار الصافية والادعية الناضرة . . . فاذا ما جن الليل

(١) راجع ذلك في " التصوف الاسلامي وتاريخه " لنكلسون صفحة ٣ .

(٢) التصوف الاسلامي وتاريخه ٤٦

(٣) التصوف الاسلامي وتاريخه ٣

وسكن الاحياء وجسث خلال المدينة - شأن الغرباء ذوى النفوس الطلعة المغامرة - ترامت الى
مسامعك انغام اللهو العنيف في نفس الوقت الذى يقرع اذنيك فيه تضرعات المتهجد بين القانتين •
هنا اللاهون يمزرون بزوارقهم الزاهية في مياه تلك القنوات المتشابكة يعزفون ويعريدون ،
وهناك في زاوية اخرى ترى العابد بين ساديين بين المقابر يستلمون الموت والقبر افكارا وموضوعات
للتأمل الحزين والعظة البالغة والعزوف عن الدنيا " (١)

ولا يغفل اثر القصص الديني الذى كان يقصه لهربان المسيحية ، وقد كان المسلمون
الورعون يتلهفون على سماعه • من ذلك الاسرائيليات لوهب بن منبه وقصص الانبياء للشعلبي
الذى تأثر والكسائي بالقصص الديني اليهودي والنصراني • بل ان الحسن البصرى نفسه
كان قصاصاً من نوع خاص (٢) ؛ يذكر بالاخرة ويستخرج العظة من الاحداث حوله ؛ " يا ابن
آدم لا ترض احد بسخط الله ... ان الله خلق الخلق فمضوا على ما خلقهم عليه ، فمن
كان يظن انه مزاد بحرصه في رزقه فليزدد بحرصه في عمره او يغير لونه او يزد في اركانه
او بنائه " " يا ابن آدم لم تكن فكونت ، رسألت فاعطيت ، وسئلت فمنهت فبئس ما صنعت " •

وكان القائلون على هذه النزعة ايام بين امية من الاتقياء الورعين امثال الحسن البصرى
الذى يستنتج " نكلسون " من اقواله واقوال غيره من المتزهدين ان بواعث الزهد الذى قبلوا
عليه تتمثل في : الايات القرآنية التي تصور عذاب الاخرة وتحذر منه ، والخوف الذى اشاعته
هذه الايات في النفوس ، وفي الشعور بالاثم ، فعولوا على ان ينيبوا الى الله بالتوبة والاستغفار ،
فسفيان الثوري يقول " ما اطاق احد العبادة ولا قوى عليها الا بشدة الخوف " (٣) حتى
ان من الزهاد طائفة عرفت بالبكايين لان منهم من كان يبكي عند سماع الوعظ ، ولعل الخليفة

(١) شهيدة العشق الالهى ٥

(٢) راجع فجر الاسلام ١ / ١٩٢ - ١٩٤

(٣) حلية الاولياء ٦ / ٣٦٢

عمر بن عبد العزيز نفسه من هؤلاء البكائين . ففي " حلية الاولياء " عن بكائه وهو يسمع الوعظ او ذكر الموت شيء كثير (١) . فقد كتب اليه الحسن البصرى يوما " . . . فكأنك ببلدنيا لم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تنزل " ، فخرج الى المسجد وصعد المنبر ثم قال " ايها الناس انكم في اسلاف الماضين ، وسيرتكم الباقون حتى يصيروا الى خير الوارثين ، كل يوم تجهزون غاديا الى الله ورائحا قد حضر اجله ، وطوى عمله ، وعايين الحساب ، وخلع الاسلاب ، وسكن التراب ، ثم تدعونه غير موسد ولا مهمد . ثم وضع يديه على وجهه فبكى مليا ثم رفعهما . . . " (٢) ومراعاة الحسن البصرى تنبيء عن نداء هذه الميل الزهدية " يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تريحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا . يا ابن آدم ، اذا رأيت الناس في خير فنافسهم فيه ، واذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به . الثناء ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل . . . فالوحاء الوحاء والنجاء النجاء . . . " (٣) او " . . . الا ان من كان قبلكم كانوا ياخذون من الدنيا بلاغهم ويوشرون بالفضل . الا ان هذا الموت قد اضر الدنيا ففضحها ، فلا والله ما وجد ذولب فيها فرحا ، فايامك وهذه السبل المتفرقة التي جماعها الضلالة ، وميعادها النار . . . " (٤) او " مؤمن متهم ، (وقرئت مهتم) وعلج اغتم ، واعرابسي لافق له ، ومنافق كذاب ، ودنياوى مترف ، نعتى بهم ناعق فاتبعوه فراش نار وذبان طمع . والذي نفس الحسن بيده ، ما اصبح في هذه القرية مؤمن الا وقد اصبح مهموما حزينا ، وليس لمؤمن راحة دون لقاء الله " (٥)

(١) حلية الاولياء ٣١٨/٥ - راجع " سيرة عمر بن عبد العزيز " لابن الجوزى ولا سيما

صفحة ١٨١ وما بعدها .

(٢) الاغاني ١٥٧/٨

(٣) البيان والتبيين ١٣٢/٣

(٤) البيان والتبيين ١٣٥/٣ - ١٣٦

(٥) البيان والتبيين ١٣٦/٣ - ١٣٧

وقال في موعظة اخرى " يا معشر الشيخ ، الزرع اذا بلغ ما يصنع به ؟ قالوا : يحصد .
يا معشر الشباب : كم من زرع لم يبلغ ادركته آفتة " (١) .

وعصر عمر بن عبد العزيز وحياته يوحيان بتشجيع هذا الاتجاه الزهدى . فقد كان الحسن البصرى في مقدمة الاتقياء الذين كانوا قوام هذا العصر وقوام سياستهم . حسبنا ان نذكر رسائله التي كان يبعث بها الى عمر يعظه وينصحه ، او يصف له " الامام العادل " . وكان عمر يستشير^(٢) ويستنصحه ويتأثر بما يقوله ويراه . ومن الباحثين^(٣) من يرى ان مساهمة الحسن في الحكومة لما ولاه عمر القضاء ، قد عدلت كثيرا من آرائه في السياسة ، فقد كان يأخذ على السلطان اتخاذ الشرطة ، ولكنه رأى ذلك ضرورة لما تولى القضاء ، لان الناس لا بد لهم من وزعة . ومن هنا نستطيع ان نستخلص ان عصر عمر ، وحكومة عمر ، وشخصية عمر - قبل ذلك كله - قد تأثرت بالاتجاه الذى كان يرتضيه الحسن ويدعو اليه . وان في نزول عمر عند رأيه بتعيينه عدى بن ارقطة - الذى كان يقرب اليه القراء ويصغي الى مشورتهم - واليا على البصرة لدليلا آخر على اتجاه عصر عمر وتأثره بنزعة التقى والتدين . فالحسن الزاهد الورع كان راغبا في ان يجعل من مبادئ الزهد التي كان يأخذ بها نفسه مبادئ للناس جميعا . وعمر بن عبد العزيز التقى المتدين كانت تلاقي هذه المبادئ من نفسه هوى شديدا فلا غرو اذا طبع عصر عمر بطابع الحسن ، ولا عجب اذا اعتبر عصر عمر عصر الحسن . ثم ان حياة عمر نفسها تعد حائزا قويا لتلك الميول الزهدية - فإى خليفة لا يجدون عنده ثوبا غير ثوبه الذى اتسخ في مرضه ، على ما يروون^(٤) - ثم لا يكون في هذه القدوة التشجيع القوي لذوى الميول الزهدية ؟ فهو دائم القلق والخوف من اللعج ومن عذاب الآخرة " اوصيكم بتقوى الله ، فان تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم فانه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى امر دنياه واصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم .

(١) عيون الاخبار ٢ / ٢٢٣

(٢) راجع سيرة عمر بن عبد العزيز صفحة ١٢٤ وما بعدها مثلا .

(٣) انظر " الحسن البصرى " ل احسان عباس صفحة ٥٠ وما بعدها

(٤) صفة الصفوة ٢ / ٦٨

واكثر واذكر الموت واحسنوا الاستعداد قبل ان ينزل بكم فانه هادم اللذات " (١) وكان يقول (٢)
وهو يعظ بالاخرة " ان لكل سفر زاد لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا الى الاخرة . . . " (٣)
وهو قانع بما يمسك عليه رقبته ، لا يؤخذ ببهاج الدنيا وزخارفها . وامتناعه عن الشعراء (٤)
امر معروف . وقد زعموا ان له شعرا دينيا من ذلك :

ومن الناس من يعيش شقيا	جيفة الليل غافل اليقظة
فاذا كان ذا حياء ودين	راقب الله واتقى الحفظه
انما الناس راحل ومقيم	فالذي سار للمقيم عظه (٥)

فمثل هذا الخليفة الخاشع العابد ، ومثل عصره المطبوع بطابع الخشوع والعبادة لا محيص من
ان يرفدا الحركة الزهدية باكم رقد .

بواد الزهد في شعر العصر

(٦)

ولقد امتدت ظلال هذه الميول الى الشعر ، كما في قول النابغة الشيباني :

ويجزني الاسالم والشيب والتقى	وفي الشيب والاسلام للمرء زاجر
وقلت - وقد مرت حتوف باهلها -	الا ليس شيء غير ربي غافر
هو الباطن الرب اللطيف - كانه	واول شيء رننا ثم الآخـر
كرم حلم لا يعقب حكمه	كثير ايامي الخير للذنب غافر

ففكرة الوعظ والتنبيه الى الموت واضحة ، بعد هذا السرد الذي يبتغي ان يصف قدرة الله
ترهيبا وترغيبا :

الا ايها الانسان هل انت عامل	فانك بعد الموت لا بد ناشر
ومن يعطل - الخيـر	
الم تر ان الخير والشرف قنته	ذخائر مجزى بهن خائـر
ومن يعمل الخيرات او يخط خاليا	يجازيها ايام تبلى السرائـر

(٦) الديوان ١٧ - ١٨

- (١) سيرة عمر بن عبد العزيز ٥٣
- (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ١٩٦
- (٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ١٥٨ وما بعدها
- (٤) سيرت عمر بن عبد العزيز ١٦٨ وما بعدها
- (٥) سيرة عمر بن عبد العزيز ٢٣٠

او الحجاج بن يوسف التيمي الذي يعرض فكرة قريبة من فكرة زميله النابغة ، وهي فكرة لا تعدو

نطاق الوعظ والتذكير :

اذا كانت السبعون سنك لم تكن
وان امرا قد سار سبعين حجة
واذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
واذا ما انقضى القرن الذي انت منهم
لداك الا ان تموت طيب
الى منهل من ورده لقريب
خلوت ولكن قل علي رقيب
وخلفت في قرن فانت غريب (١)

وابي الاسود الدؤلي :

واذا طلبت من الحوائج حاجة
فليعطينك ما اراد بقدره
ان العباد وشأنهم وامورهم
فدع العباد ولا تكن بطلابهم
فادع الاله واحسن الاقوال
فهو اللطيف لما اراد فعلا
بيد الله يقلب الاحوال
لهجا تضعضع للعباد سؤالا (٢)

أرأيت الى الاستسلام والاتجاه لله ؟ اذن فاسمعه يقول مرة اخرى :

توكل وحمل امرك الله وانما
ولا تحسبن السير اقرب للبردى
واني ملاقي ما قضى الله فاصبرى
وانك لا تدري هل ما اخافه
وكم لله رأيت حاذرا متحفظا
تراد به آتيك فانزع بذى الفضل
من الخفض في دار المقامة والتمل
ولا تجعللي العلم المحقق كالجهل
ابعدى ياتي في رحلي او قبلي (٣)
اصيب والقتة المنية في الاهل

فالخوف من الموت والشعور بوقوعه يدفعانه الى هذا الاستسلام .

(٤)

وبعض الباحثين يرد نشوء الغزل الاباحي في مدن الحجاز ، والحب العذري في البادية

الى هذه الاحداث السياسية والاجتماعية التي جرت في الحياة الاموية ؛ فاهل مكة والمدينة

(١) عيون الاخبار ٢ / ٣٢٢

(٢) الاغانى ١١ / ١٠٧ - ١٠٨

(٣) الاغانى ١١ / ١١١

(٤) راجع مقال الدكتور طه حسين في حديث الاربعاء ١ / ١٨٠ (الغزل والغزلون) .

مثلا كانوا ياقصين من الوضع السياسي ولكنه كانوا موسرين فاجتمع عندهم اليأس والمال فلهوا وعيشوا ، اما سكان البادية فقد كانوا فقرا ، ولكنهم تآثروا بالاسلام فظل في نفوسهم اثر من تقوى فلم ينصرفوا الى اللهو وانما الى نفوسهم " فانكبوا عليها واستخلصوا منها نعمة لا تخلو من حزن ، ولكنها نعمة زهد وتصوف . وانا اعلم ان لفظ التصوف هنا لا يودى معناه الذى اريده ، تقل انهم انصرفوا الى شيء من المثل الاعلى في الحياة الخلقية " . فهذان اللونان من الغزل اذن اثر من آثار الحياة السياسية الاموية . (١) ثم ان الغناء كان رائجا وكان هذا الغزل الاباحي والعذرى مددا له . ولقد

ولقد استمرت هذه النزعة الغتية الى الزهد في القرن الثاني . والحق ان هذا القرن كان حافلا بالشخصيات الدينية والادبية التي اسهمت في تقوية هذه النزعة وتشبيتها في النفوس - فاذا عرفنا ان سفيان الثوري وعبد الله بن المبارك والامام الشافعي مثلا ، كانوا من شخصيات هذه الفترة ، ادركنا قيمة هذه الحقبة في تاريخ الزهد الاسلامي . سفيان الثوري كان في هم مقيم من خشية الله وخوفه حتى قيل ان ليس في الحنيفية رجل مثله " قد قطع الحزن كبده " (٢) فهو القائل " لقد خفت الله خوفا ، عجبا لي كيف لا اموت ، ولكن لي اجل انا بالغه ، ولقد خفت الله خوفا وددت ان خفف عني منه ما اخاف ان يذهب منه عقلي " (٣) ، وعبد الله بن المبارك كان من صفوة الاتقياء ، فقد تخرج من ان ينتفع بفراخ اختلطت بها حمام غيرها فتزاجت بها (٤) ، حتى قال ابن عيينه " نظرت في امر الصحابة وامر ابن المبارك فما رأيت لهم عليه فضلا الا بصحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم وغزاهم معه " (٥) واما الامام الشافعي فانت تجد هذه النزعة في شعره فضلا عن معاشه :

-
- (١) حديث الاربعاء ١٨٦/١
(٢) صفة الصفوة ٨٦/٣
(٣) صفة الصفوة ٨٤/٣
(٤) صفة الصفوة ١١٠/٤
(٥) صفة الصفوة ١١٣/٤

جعلت رجائي نحو عفوك سلماً
بعفوك رسي كان عفوك اعظماً
تجود وتعفو منة وتكرماً
فكيف وقد اغوى صفيك آدم (١)

فلما قسا قلبي وضافت مذاهبي
تعاضمني ذنبي فلما قرنته
فما زلت ذا ذنب عن الذنب لم تنزل
فلولاك لم يقدر بالليس عابـد

الاستسلام لله والاناة اليه ، والاقرار بالذنب ، كل هذه من مظاهر النزعة الزهدية التي تعبر
عنها هذه الآيات :

والزهاد الشعراء في ذلك العصر كثر منهم : مالك بن دينار الذي مر ببلال بن ابي بردة
وحوله الناس ، فسأله بلال : اما تعرفني ؟ فاجابه مالك بلى ! اعرفك ، اولك نطقة ،
واوسطك جيفة واسفلك دودة (٢) فقصارى ما يرى في بني آدم هذا الرأى . وقد شاهد
رجلا يخرس ، فلما عاد اليه بعد قليل اذا به قد مات فانشد :

فمات المومل قبل الامل
فعاشر القسيل ومات الرجل (٣)

مومل دنيا لتبقي له
يربي فسها ويعنى به

وله يصور الفناء ويعظ بالموت :

من اين المعظم والمحتقر
واين المزكي اذا ما افتخر

اتيت القبور فناديت
واين المدل بسلطانه

قال : فنوديت من بيتها ولا ارى احدا :

وما تو جميعا ومات الخبير
وقمحي محاسن تلك الصور
اما لك فيما ترى معتبر ؟

تفانوا جميعا فما مخبر
تروح وتغد وبنات الثرى
فيا سائلي عن اناس مضو

قال : فرجعت وانا ابكي (٤)

(١) معجم الادباء ١٧ / ٢٠٣ - ٢٠٤

(٢) حلية الاولياء ٢ / ٣٨٥

(٣) حلية الاولياء ٢ / ٣٨٤

(٤) عيون الاخبار ٢ / ٣٠٢ - ٣٠٣

ولعمرو بن اذينة صاحب الغزل المشهور ابيات من هذا القبيل :

ويحزننا بكاء الباكيات
فلما غاب عادت راتعات (١)

نراع اذا الجنائز قابلتنا
كروعة ثلثة لمغار ذئب

ففي ذلك تصوير لهول الموت ، الذي يدعوس اور الوراق الى التأهب له بالتقوى والعمل الصالح :

واحكك جبينك للقضاء بشوم
حسن التعهد للصلاة حرم
وسماك العيسى والمين حكيم
حتى تصيب ودعة لبيتم (٢)

شمر قميصك واستعد لقائل
واجعل صحابك كل خبير ناسك
من ضرب حماد هناك ومسعر
وعليك بالغنوى فاجلس عنده

ولـه :

اذا كان فيه جسمه يتهدم (٣)

وما ينفع المقبور عمران قبره

فالخوف من الموت ، والاتعاظ بالغناء ، والدعوة الى الصالحات ، كل هذا ظاهر في هذه الابيات ،
ومسعر الذي دعا مساور الى مصاحبته هو الذي قال فيه سفيان الثوري " لم يكن في زماني مثله " (٤)

وهو الذي روى سفيان لما مات ، انه رأى النبي فيما يرى النائم وهما يطوفان ، فقال له " يا رسول
الله مات مسعر بن كدام ، قال : نعم واستبشر به اهل السماء " (٥) ، له شيء من هذا الشعر :

وملء الكف من ماء الفسرات
وكثر الطعم عون للسبات (٦)

وجدت الجوع يطرده رغيـف
وقل الطعم عون للمصلي

القناعة بالكفاف ، والعبادة ، والتهجد . . . كل هذه من معاني هذين البيتين اللذين ينبئان
عن ميل زهدى قوى . وهو القائل في فناء العيش واغترار الانسان بالدنيا :

(١) البيان والتبيين ٢٠١ / ٣

(٢) البيان والتبيين ١٧٥ / ٣ - ١٧٦

(٣) الاغانى ١٦٩ / ١٦

(٤) حلية الاولياء ٢١٠ / ٧

(٥) حلية الاولياء ٢١٠ / ٧

(٦) حلية الاولياء ٢١٩ / ٧

وليلك نعم والردى لك لانم
كذلك في الدنيا تعيش البهائم (١)

نهارك يا مغرور سهو وغفلة
وتتعب فيما سوف تكره غبه

او :

ولا كالليقين استوحش الدهر صاحبه
من الموت خاف اليوس او نام هاربه (٢)

ولم ارمك كالدنيا بما اغتراهلها
ولا كالذي يخشى المليك عباده

كل هذا تهكيت للناس وتفریح لسه على اغترارهم بالدنيا وتهافتهم عليها ، وتذكير لهم بمصيرهم
المحتم : الموت .

وزاهد شاعر آخر هو محمد بن يوسف الملقب بعروس الزهاد ، وكان متعبدا يطلب في الجامع .
قال يصف الدنيا وفناءها ويعظ الناس ويغري العابدين بالموت :

الا اين ارباب المصانع والقرى
الا قطع الموت التصب والعنسى (٣)

ومر بدار المترفين وقل لهم
ومر بدار العابدين وقل لهم

وكان يقول " لقد خاب من كان كحظه من الله الدنيا " (٤) وهذا المعنى يصوغه شعرا :

اذا كنت في دار الهوان فانما
ينجيك من دار الهوان اجتنابها (٥)

ولعله يوضع ذلك كله بهذا القول " وتزود لاخرتك ، وتجاف عن دنياك ، وباد الغوث ، واعلم
ان امامك اهوالا وافزاعا قد فزعت منها الانبياء والرسل " (٦) .

وسعيد بن وهب وقد كان من الشعراء المجان ثم تاب وصلاح ، كان يقول متندا مقرا بذنبه :

واطرقا الآجن من ماء القليب
زهرة الدنيا وفي واد خصيب
صخب المزهر كالظبي الربيب
وخذا من كل فن بنصيب
فلعل الله يعفون ذنوبي (٧)

قدمي اعتورا رمل الكتيب
رب يوم رحمتا فيه علسي
وسماع حسن من حسن
فاحسبا ذاك بهذا واصبورا
انما امشي لاني مذنب

(٥) حلية الاولياء ٢٣٥ / ٨
(٦) حلية الاولياء ٢٣٥ / ٨ - ٢٣٦
(٧) صفة الصفوة ٢٠٣ / ٢

(١) حلية الاولياء ٢٢٠ / ٧
(٢) حلية الاولياء ٢٢٢ / ٧
(٣) حلية الاولياء ٢٣٠ / ٨
(٤) حلية الاولياء ٢٣١ / ٨

وهناك محمد بن كناسة الذي يقول :

ومن عجب الدنيا تبقيك للبلى
واى بني الايام الا وعنده
ومن يا من الايام اما اتساعها
انذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى
وانك فيها للبقاء مريد
من الدهر ذنب طارف وتلبد
فخطر واما فجعتها فعتيد
فان فظام النفس عنده شد يد (١)

فالبقاء في الدنيا يعني عنده الفناء ، والدنيا عبارة عن الآم وفجائع ، فليستعن عليها بالعبادة
التي يعدها شرفا وفضيلة :

ينبيك عن عيب الفتى
فاذا تهاون بالصلا
ترك الصلاة او الخدين
ة فما له في الناس دين (٢)

والى جانب هؤلاء الورعين الشحراء تجد الورعين المجانين كشعوانه التي كانت دائمة
البكاء من خشية الله فكانت تقول " اعمى والله في الدنيا من البكاء احب الي من ان اعمى
في الاخرة من النار " (٣) ، ثم قالت : " والله لو ددت اني ابكي حتى تنفك دموعى
ثم ابكي الدما حتى لا تبقى في جسدى جارحة فيها قطرة من دم وانى لي البكاء " (٤) وكانت
تتوح بهذين البيتين :

يؤمل دنيا لتبقى لـ
حنيثا يروى اصول الفسيل
فوافى المنية قبل الامل
فعاش الفسيل ومات الرجل (٥)

الياس من الحياة والبكاء خوف عذاب الاخرة .

وميمونة السوداء تقول " ما من عبد اعطي من الدنيا شيئا فابتغى اليه ثانيا الا سلبه الله
حب الخلوة معه وهذله بعد القرب البعد ، وبعد الانس الوحشة " - تلك دعوة صريحة الى
رفض الحياة والياس منها وكانت تنشد :

(٥) صفحا الصفوة ٤ / ٣٨

(١) الاغاني ١٢ / ١١٣

(٢) الاغاني ١٢ / ١١٤

(٣) صفة الصفوة ٤ / ٣٦

(٤) صفة الصفوة ٤ / ٣٧

يا واعظا قام لاحتماب
تنهى وانت السقيم حقا
لو كنت اصلحت قبل هذا
كان لما قلت يا حبيبي
تنهى عن الغي والتماذي
يزجر قوما عن الذنوب
هذا من المنكر العجيب
عيبك او تبت عن قريب
موقع صدق من القلب
وانت في النهي كالمريب (١)

وريحانة العابدة الخاشعة تقول مسفة المغرورين بالدنيا واعظة بالماضين
وما عاشق الدنيا بناج من الردى
فكم ملك قد صقر الموت بيته
ولا خارج منها بنير غليل
واخرج من ظل عليه ظليل (٢)

فكيف يغمض جفن ؟
من كان راكب يوم ليس يأمنه
فكيف يلتذ عيشا لا يطيب له
وليله تائها في عقب دنياه
وكيف تعرف عين الغمض عيناه (٣)

فالدنيا بالنسبة اليها عذاب ولا راحة الا بالتخلي منها فكانت تقول
ارى الدنيا لمن هي في يديه
تهين المكرمات بها بصغر
اذا استغنيت عن شيء فدعه
عذبا كلما كبرت لديه
وتكرم كلما هانت عليه
وخذ ما كنت محتاجا اليه (٤)

وشمة بهلول الذي رفض هبة الرشيد وقال له : ردها لمن اخذتها منه ، كان ينشد :

دع الحرص على الدنيا
ولا تجمع من المال
فان الرزق مقسم
فقير كل ذي حرص
وفي العيش فلا تطمع
فما تدري لمن تجمع
وسوء الظن لا ينفع
غني كل من يقنع (٥)

(١) صفة الصفوة ٣ / ١٢٢

(٢) راجع شهيدة العشق الالهي ١١٣

(٣) راجع شهيدة العشق الالهي ١١٣

(٤) راجع شهيدة العشق الالهي ١١٣

(٥) طبقات الشعراني ١ / ٥٨

ففي هذه الابيات - كما نرى - ذم للحرص على الدنيا ، ودعوة الى القناعة والاستسلام الى القدر .
ومثل هذه المعاني لا تعدم في شعر الشعراء المجان الذين تابوا واصلحوا في هذه الفترة
كآدم بن عبد العزيز الذي شهر بمجونه وتعتبه ، قال بعد ما نمك يعظ بالفناء :

وان قالت رجال قد تولسى	زمانكم وذا زمن جديد
فما ذهب الزمان لنا بمجد	ولا حسب اذا ذكر الجدود
وما كنا لنخلد اذ ملكنا	واي الناس دام له الخلود (١)

وكأبي نواس شاعر المجان او ماجن الشعراء الذي روى له الجاحظ شيئاً من شعر الزهد في " باب
الزهد " من كتابه " البيان والتبيين " حسبنا هذه الابيات له :

كن مع الله يكن لك	واتق الله لعلك
لا تكن الا معدا	للمنايا فكأنك
ان للموت لسهمنا	واقعا دونك او بك
نحن نجرى في اننا	نمين سكون وتحرك
فعلى الله توكل	ويتقوا تمسك (٢)

ومحمد بن بشير الرياشي الذي قال بعد ما تاب :

ويل لمن لم يرحم الله	ومن تكون النار مشواه
واغفلت في كل يوم مضى	يذكرني الموت وانساه
من طال في الدنيا به عمره	وعاش فالموت قصاره
كأنه قد قيل في مجلس	قد كنت آتية واغشاه
محمد صار الى ربه	يرحمنا الله واياه (٣)

x x x

ومثل هذه الومضات الزهدية ، او السبحات الروحانية - على الاصح - او شعر التقى
والتوبة الذي يصور تهاة الدنيا وزوالها ، ويبصر الناس بالموت واهواله ويغري بالتقوى ، ويرهب

(١) البيان والتبيين ٢٠١ / ٣

(٢) البيان والتبيين ١٩٩ / ٣

(٣) الاغانى ١٣٢ / ١٢

بالاهوة ، او يحض على القناعة ويأمر بالتسليم الى الله ، كل هذا ينبيء عن تهيوذ واقع هذه
النزعة منذ العصر الاموي وان لم تتلبس لباس النزعة المكتملة الا بعد ذلك . ناهيك عن ان
قوامها التورع والتدين او الخوف والتوبة والحث على القناعة والتقوى ، اى الاحماس الروحى
لا الفكرى . ف فيما رأينا من شعر وشواهد مجموعة من الفضائل الخلقية او الدينية او التعبدية
اكثر مما هي مجموعة من الفضائل الزهدية الفكرية . وسرى لبوس هذه النزعة الفكرى عند ابي
العتاهية حينما نشع في تلمس معالم الزهد في شعره .

مصادر البحث ومراجعته

المصادر

- ١ - الاصبهاني ، ابونعم احمد ، حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ، ج ٢ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٣٢ / ١٩٣٨ .
- ٢ - الاصبهاني ، ابوالفرج ، الاغانى ، ج ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، مطبعة بولاق ، القاهرة ١٢٨٥ هـ .
- ٣ - ابن الجوزى ، ابوالفرج عبد الرحمن ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، مطبعة الميوند ، القاهرة ١٣٣١ هـ .
- ٤ - ابن الجوزى ، ابوالفرج عبد الرحمن ، الصفح = صفة الصفوة ، ج ٢ ، ٣ ، ٤ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ، الهند ١٣٥٥ / ١٣٥٦ هـ .
- ٥ - ابن قتيبة ، ابومحمد عبد الله بن مسلم ، عيون الاخبار ، ج ٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٨ .
- ٦ - الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، ج ٣ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٩ .
- ٧ - الشعرانسي ، عبد الوهاب ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ، المطبعة الشرقية ، القاهرة ١٣١٥ هـ .
- ٨ - النابغة الشيباني ، الديوان ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٢ .
- ٩ - ياقوت الرومي ، شهاب الدين ، معجم الادباء ، ج ١٧ ، مطبعة دار الطامون ، القاهرة ١٩٣٦ / ١٩٣٨ .

المراجع

- ١ - امين ، احمد ، فجر الاسلام ، ج ١ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٢٨ .
- ٢ - بدوى ، عبد الرحمن ، شهيدة العشق الالهى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة ٤ .

- ٣ - حسين ، طه ، حديث الاربعة ، ج ١ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٣ .
- ٤ - عباس ، احسان ، الحسن البصرى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٢ .
- ٥ - نيكسون ، رينولد ، فى التصوف الاسلامى وتاريخه ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٧ (ترجمة " ابو العلا عفيفى ") .

تأثر النزعة الزهدية بالتصوف الدخيل :

ولكن لماذا نما هذا الزهد حتى غدا تصوفاً ؟ خلاصة الآراء في ذلك ان الاسباب عوامل سياسية واجتماعية وفكرية جدت في القرنين التاليين للهجرة لوفاة الرسول . فنحن نعلم ان هذين القرنين حفلا بالحروب والفتن الاهلية - كما حفلا بالتطورات الاجتماعية - فكان الارستقراطيون ، وكان المترفون ، وكان النشاط الفكري العام ؛ كانت المجادلات والفرق الكلامية في اصطراع عنيف . كل هذه العوامل حملت نفرا من المتورعين على ان يعتزلوا هذه الحياة الجديدة التي لم يرضوا عنها ، فرأوا ان يتقربوا الى الله عن طريق الزهد . ويعد " دى بور " الصوفية نوعا من انواع الردة على مجادلات المتكلمين ومهربا منها (١) .

فالتصوف بدأ في اول الامر زهدا . قال ابن خلدون عن الصوفية انها " . . . من العلم الشرعية الحادثة في الملة . . . واصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع الى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف الدنيا ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعباد ، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف ، فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختصر المقبولون على العبادة باسم الصوفية او المتصوفة . وقال القشيري - رحمه الله - ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس . والظاهر انه لقب . ومن قال اشتقاقه من الصفا او الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي . قال وكذلك من الصوف لانهم لم يختصوا بلبسه .

(١) دى بور ٩٨ - وموضوع الزهد الاسلامي هذا قد فصل فيه الكلام في مثل هذه الكتب ، " في التصوف الاسلامي وتاريخه " لنكلسون ، " التصوف عند العرب " لجبور عبد النور ، " التصوف الاسلامي " لعمر فرخ ، الخ . . .

قلت والظاهر ان قيل بالاشتقاق انه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف . فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق ، والاقبال على العبادة اختصوا بماخذ مدركة لهم . . . (١) .

فالصوفية اذن بدأت ، اول الامر ، صبغة دينية بسيطة خاصة بنفر من الاتقياء ، ثم ما لبثت ان نمت وتطورت حتى غدت طبقة خاصة لها قواعد وطرق ورواسم وتلاميذ (٢) . وفي هذا الطور الاخير انسابت الافكار والثقافات الاعجمية . والآراء مجمعة على ان التصوف الاسلامي قد تلقح بالفكر المندى ، وتأثر بفلسفة " الفاندانا " و " النارانا " . ولعل فكرة الفناء عند الصوفية مردها الى " النارانا " هذه . وتأثر ايضا بالنصرانية ، ونحن نعلم ان النصرانية عايشت العرب في جاهليتهم وان اثر الرهبان النصارى في الزهد كان آنذاك كبيرة . وفكرة التوكل مصدرها هذا الزهد النصراني . اما الاثر اليوناني فقد امتد بطريق مدرسة الاسكندرية والافلاطونية الحديثة (٣) .

وهكذا يتضح انه اذا كان الزهد الاسلامي اسلاميا صرفا ، فان التصوف الاسلامي ليس كذلك ابدا ، وانه انما اشرب شتى الاصباغ والالوان من هندية ويونانية وفارسية . وليس هذا ما نرغب في توجيه الانظار اليه . وانما الذي يهمنا من امر الزهد الاسلامي او التصوف الاسلامي ، هو بواعثه . فصحيح ان منه ما كان بدافع من طبيعة سلف عازقين عن الدنيا ،

(١) ابن خلدون ٤٠٨ ، راجع للمع ٢٠-٢٢

(٢) سليمان فارس النابلسي ، " التصوف الاسلامي " ، مجلة الرسالة العدد ٨١ ، السنة الثالثة ، ١٩٣٥ ، صفحة ٩٨ .

Encyclopaedia Britannica, (art. , Sufiism) - Anonymous (٣)

شاخصين باهارهم وافئد تهم الى آخرة • ولكن الدوافع الاساسية كامنسة في ما جدد
 في حياة المسلمين في القرنين التاليين لوفاة رسولهم • وعندى ان التطور الاقتصادى (والاجتماعى
 بالتالى) هو ابرز هذه الدوافع • وثورة ابي ذر الخفارى على عثمان ومعاوية ابرز
 مظاهر شرور هذا التطور الاقتصادى ، فقد نشأت طبقة الوجهاء تحتكر الاموال وتكنزها ،
 وتمتلك الدور والضباع ، والشعب لا يملك من الامور شيئاً • والواقع ان با ذر قد اثار ازهان
 الناس ونفوسهم على الوضع ، فكانت المحاولات لاغرائه بالصمت (٢) فلما يتسوا منه نفاه
 عثمان ، كما هو معروف ، ثم مات ميتته المعروفة وهو شريد في الغلاة ، ولكنه كان قد اضم
 اول ثورة اقتصادية في الاسلام •

(١) راجع كتاب " ابو ذر " لعلي ناصر الدين

(٢) راجع للمص ١٢٧

= الفصل الثاني =

= ٤ =

مفاسد المجتمع العباسي في شعرابي العتاهية

إذا كان عصر شاعرنا ، قد خلا من تائر كأبي ذر ، فليس معنى ذلك ان دواعي الثورة لم توجد . فقد رأينا ونحن ندرس العصر - في مستهل هذه الرسالة - ان الناس كانوا في امر مجتمعهم مذهبيين : مذهب الراضين ، المقبلين على ما فيه من مغريات ومباهج ، ومذهب الساخطين الحانقين الذين لا يجدون من اسباب الثورة الا الزهد . فالثورة اذن لم تنعدم ، وان كانت قد تزيت بزى سلمي آخر - الزهد - .
وانا كان الشك والمجون ابرز مزايا شعرابي العتاهية : الشك اثر ما شجر بين المسلمين من خلاف سياسي ففكرى حول الخلافة ، والمجون الذي تلا الفتح بما افاضه هذا الفتح من اموال ، فان الصلاح كذلك من مزاياه .

وقد رأينا الفتن تعتور المجتمع العباسي في الداخل والخارج : رأينا الشيعة والخوارج والشعوبيين من العرب والفرس ، وفتنة الاميين والمأمون ، وقبل ذلك نكبة البرامكة وابي مسلم ، وما الى ذلك من احداث يضطرب معها الامن وتثور النفوس .
وقد تقدم في حديثنا عن العصر ان السياسة وفرقها آدت الى نشوء أفكار جديدة وفرق جديدة . فاذا علم الكلام ، واذا علماء الكلام غائصون في نقاش وجدال وبحث .

(١) عبد الحلیم عباس ، " ابا العتاهية " ، مجلة الرسالة العدد ٥٧ ،

السنة الثانية ، ١٩٣٤ ، صفحة ١٣٠٦

فهناك المعتزلة والمرجئة والاشعرية والشيعة والخوارج ، وكلها فرق قامت فلسفتها الفكرية فيما بعد على اساس السياسة ، والخلاف حول الخلافة ، على وجه التحديد . ولقد رأيناها تنقسم فيما بينها فرقا فرقا . ورأينا باى وجه متجهم تلقى جمهور المسلمين هذا العلم الجديد وطلابه ، حتى عدوا الناظر فيه كافرا او يكا .

فاذا رأى بعض الصالح هذه الحياة المضطربة سياسة وفكرا واجتماعا ، واذا رأى التناؤ والشقاق ، وقد يئسوا من تبدل الوضع ، اعتزلوا هذه الحياة ليخلوا من الائم امامهم ، ووجدوا في حركة الزهد الملجأ العاصم الامين . ثم تطورت هذه الحركة كما اسلفنا حتى غدت تصوفا ذا نظام وطرق واصول . ففي هذا العصر الذى غاصت فيه ايدى واقدام في دماء الفتن ووحول الآثام وفسار التفكير ، كانت ايدى واقدام اخرى تبتغي الطهر في لجة الزهد التي كانت هادئة اول الامر . واذا حفل العصر بمثال ابي نوح وبشار وسواهما من المجان ، فقد حفل كذلك بالصالحين الزاهدين^(١) نظير القضايل بن عياض (المتوفى سنة ١٨٧ هـ) ، ومعروف الكرخي (المتوفى سنة ٢٠٠ او ٢٠١ هـ) ، وابي سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني (المتوفى سنة ٢١٥ هـ) وبشر بن الحرث الحاقفي (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ) ، وابي حامد بن خضرويه البلخي (المتوفى سنة ٢٤٠ هـ) ، والحرث بن أسد المحاسبي (المتوفى سنة ٢٤٣ هـ) ، وذى النون المصري (المتوفى سنة ٢٤٥ هـ) ، وابي زكريا الرازي (المتوفى سنة ٢٥٨ هـ) ، وابي يزيد البسطامي (المتوفى سنة ٢٦١ وقيل ٢٣٤ هـ) ، وعبدالله التستري (المتوفى سنة ٢٨٣ وقيل ٢٧٣ هـ) ، والجنييد (المتوفى سنة ٢٩٧ هـ) وغيرهم .

فما هو محل ابي العتاهية بين هؤلاء الزهاد ؟ لا نتنبأ بذلك قبل ان نستعرض شعره الزهدي ببعض التفصيل والاناة .

(١) راجع الرسالة القشيرية صفحة ٨ وما بعدها

قال الاصفهاني " شاور رجل ابا العتاهية فيما ينقشه على خاتمه فقال :

انقش عليه لعنة الله على الناس وانشد :

برمت بالناس واخلاقهم
ما اكثر الناس لعمرى ومسا
فصرت استانس بالوحيدة
اقلهم في حاصل العتده (١)

هذا خلاصة رأى ابي العتاهية في الناس . واذن تلخصت نظرته الى الناس بسوء

الظن ، فان رأيه في مجتمعهم يتلخص في كلمة واحدة - الفساد . وعنده ان هذا

الفساد نتيجة ثلاثة الوان من الشرور هي النقائص الخلقية ، وآفات الاجتماعية ، والاستغلال

السياسي .

١ - النقائص الخلقية

فاولي هذه النقائص النفاق - قال :

الله دراييك اي زمان
كل يوازنك المودة دائبسا
اصبحت فيه واي اهل زمان
يعطي ويأخذ منك بالميزان
فاذا رأى رجحان حبة خردل
مالت مودته مع الرجحان (٢)

فمعاصروه قيم نفعيون انتهازيون :

لو رأى الناس نبيسا
انت ما استغنيت عن صسا
مائللا ما وهلسوه
حبك الدهر اخسوه
فاذا احتجت اليه
ساعة مجيك فسوه (٣)

(١) الاغاني ٤/٣٧-٣٨

(٢) الديوان ٢٦٠-٢٦١

(٣) الديوان ٢٩٥

يبدلون لك من مودتهم ما بذلت لهم من نفعك :

قد بلونا الناس في اخلاقهم
وحبيب الناس من اطعمهم
فأيناهم لذى المال تبسح
انما الناس جميعا بالطمـح (١)

واسمعه يكرر هذا المعنى بشكل آخر :

اذا قل مال المرء قل صديقه
وقصر طرف العين عنه كلاله
وضاقت به عما يريد طريقه
واسرع فيما لا يحب شقيقه
وقد كان يستحليه حين يذوقه (٢)

وابوالعناهية يبذل للناس النصح في ذلك وهو يتهم عليهم باسئ ومرارة ، ويرسم
لهم طريق المعاملة الصحيح :

المرء منظور اليه
من كنت تبغى ان تكون
فابذل له ما في يديك
ما دام يرجى ما لديه
الدهنر ذا فضل عليه
وغض عما في يدي (٣)

اذن فقوم المعاملة التي يرضى عنها الناس النفع ، والصداقه انما يقومها الناس

بمقدار ما تعود عليهم من النفع :

ما سلم ككك الا من يناولها
ولا عدوك الا من يرجيها (٤)

فلا غرو اذا انتقد ابوالعناهية الاصدقاء :

واني لمشتاق الى ظل صاحب
عذيري من الانسان لا ان جفوته
يروق ويصفوان كدرت عليه
صفا لي ولا ان كت طوع يديه (٥)

(١) الديوان ١٥١

(٢) الديوان ١٧٧

(٣) الديوان ٢٨٥

(٤) الديوان ٢٨٩

(٥) الديوان ٢٨٧ - ٢٨٨

ولا غرو اذا تشوف الى الصديق الصدوق :

كم من اخ لسي خانسي وده
الحمد لله على صنعته
وما تبدلت وما خنت
اني اذا عزاخي هنت (١)

فاذا يئس من العثر على الصديق الحق تمنى الموت :

لهجت بدار الموت مستحسنالها
ليخل امرودون الثقات بنفسه
وحسبي له دار المنية من عيب
فما كل موشوق به ناصح الجيب (٢)

فاذا بذل لك النصيح في الاسلوب الذي تهجه في معاملة الاصدقاء ، فلانه

موقن بان الصداقة الصحيحة هي انفس ما يحرص عليه امرؤ واعز ما يناله :

واحفظ اخاك لما رجاك له
وارفع نواظره وكن سندا
واذا دعاك فكن له عضدا
فلقد يكون اخو الرضا سندا (٣)

بل انه ليفصل في ذلك قليلا فيقول :

أقلل زيارتك الصديق ولا تطبل
واعلم بانك لا تلاثم كل من
ان الصديق يلج في غشيانه
حتى تراه بعد طول مسرة
واخف ما يلقي الفتى قريبا على
هجرانه فيلج في هجرانه
لقى اليك تلهفا بلمانه
لصديقه فيجمل من غشيانه
بمكانه مستثقلا بمكانه
اخوانه ما خف من اخوانه (٤)

(١) الديوان ٥٤

(٢) الديوان ٣٠

(٣) الديوان ٧٧

(٤) الديوان ٢٨٠ - ٢٨١

ونقيصة ثانية من النقائص الخلقية : غدر الناس ومكرهم - قال :

فيا رب ان الناس لا ينصفونني	وان انا لم انصفهم ظلمونني
وان كان لي شيء تصد والاخذة	وان جئت ابغي سببهم منعوني
وان نالهم رقدى فلا شكر عندهم	وان انا لم ابذل لهم شتمونني
وان وجدوا عندي رجاء تفرسوا	وان نزلت بي شدة خذلونني
وان طرقتني نكبة فكفوا بهـ	وان صحبتني نعمة حسدوني (١)

أرأيت كيف يحكم عليهم باللثم والحطه ؟ وقال في تزلفهم الى القوى وانقلابهم على الضعيف :

ما الناس الا للكثير المال او	لمسلط ما دام في سلطانه
فاذا الزمان رمى الفتى بملمة	كان الثقات عليه من اعوانه (٢)

ولكنه لم ينفذ بعد يديه من الزمان ، وان كان قد نفضهما من ابنايه :

يا خليلي لا اذم زمانني	غير اني اذم اهل زمانني
لست احصي كم من اخ كان لسي	منهم قليل الوفاء حلوا اللسان
لم اجده مواتيا فتصدقــــــــــــــــت	بحظي منه على الشيطان (٣)

ومن ذلك : الكبرياء والغرور - وفيهما يقول :

حتى متى ذو التيه في تيهه	اصلحه الله وعافاه
يتيه اهل التيه من جهلهم	وهم يموتون وان تاهوا
من طلب العز ليقسى بهـ	فان عز المرء تقــــــــــــــــواه
لم يعتصم بالله من خلقه	من ليس يرجوه ويخشاه (٤)

(١) الديوان ٢٥٥

(٢) الديوان ٢٨٠

(٣) الديوان ٢٦٠

(٤) الديوان ١٢

ومنها : انعدام الوفاء - كما في قوله :

ليت حظي منه ومن مثله ان
احمد الله كيف قد فسد الناس م
لا تراه عيني وان لا يراني
وقل الوفاء في الاخوان (١)

ومنها قلة التقى ولذلك يقف فيهم واعظا مذكرا :

ايها ذا الناس ما حل بكم
وسقام ثم موت نـ نـ نـ نـ نـ
وحساب وكتاب حافـ نـ نـ نـ نـ نـ
وصراط من يقع عن حـ نـ نـ نـ نـ
عجبا من سهركم كل العجب
ثم قبرونـ نـ نـ نـ نـ نـ
وموازين ونار تلتـ نـ نـ نـ نـ نـ
فالى خزي طويل ونـ نـ نـ نـ نـ (٢)

وهم في ذلك حقيقون برثائه وهزئه :

يا ساكن الدنيا لقد اوطنتها
وشغلت قلبك عن معادك بالمنى
يا ساكن الدنيا كأنك خلـ نـ نـ نـ نـ نـ
اذكر احبتك الذين نكـ نـ نـ نـ نـ
والخير ما قدمت سنة صـ نـ نـ نـ نـ
وامنتها عجبا فكيف امتنتها
وخذعت نفسك بالهوى وفتنتها
خالد فجمعتها وخزنتها
اذكر رهونا في التراب رهنتها
للمالحين فعلتها وسنتها (٣)

وهكذا تتجمع هذه النقائص الخلقية في مجتمع ابي العتاهية حتى يضطرب ويفسه

فينقسم عليه شاعرنا ويزهد فيه .

(١) الديوان ٢٦٠

(٢) الديوان ٢١

(٣) الديوان ٥٨

ب - الآفات الاجتماعية

ثاني شرور المجتمع ، وهي كثرة نشير في ما يلي الى ابرزها • واولها في

عرفابي العتاهية : الاقبال على الدنيا - قال :

لهوت وكسم من عبرة قد حضرتها	كأنك عنها غائب حين تحضر
ألم ترى يا مغبون ما قد غبنته	وانت ترى في ذاك انك تتجر
خدعت عن الساعات حتى غبنتها	وغرتك ايام قصار واشهر
قيا بانى الدنيا لغيرك تبتني	ويا عامر الدنيا لغيرك تعم
وما لك الا الصبر والبر عنده	والأ اعتبار ثاقب وتفكر (١)

وكيف يقبل امرؤ على دنيا مآلها الزوال ؟ :

وللناس حب لطلول البقاء	فيها وللموت فيهم ديب
اراك لدنياك مستوطن	ألم تدر انك فيها غريب
فلا تحسب الدار دار الغرور	فتصول صاحبها او تطيب (٢)

ومن هذه الآفات التكالب على موارد الرزق :

رأيت الناس اتباع	لذى الدنيا والدهرهم
وما للمرء الا	نرى في الخير او قديم (٣)

وهم في هذا التكالب مغبونون ، مغرور بهم ، يلهيهم الامل الباطل عن مصيرهم الذى

لا مفر منه :

-
- (١) الديوان ١١٦
 (٢) الديوان ٢٦-٢٧ وقد وردت تستطيب ، وواضح انها خطأ مطبعي •
 (٣) الديوان ٢٤٨

انت باللهم والهوى مخدوع
ل ورد الممات لا نستطيع
وبناء القصور والتجميع
والفنا مقبل الينا سريرع
ل وننسى الذى اليه الرجوع (١)

ايها المبصر الصحيح السميع
ما لنا نستطيع ان نجتمع الما
حب الاكل والشراب الينا
وصنوف اللذات من كل لسون
نجمع الفاني والقليل من الما

وانه اذ يتأسى عليهم/ يغبنون ، تدركه الشفقة وهم يسامون من هذه المطامع والاهواء
الخسف والمهانة :

غير اننا مع الشقاء ننام
ويدنو الى النفوس الحمام
ذا لعمري لو اتعظنا الغصام
ه وقلنا له عليك السلام (٢)

لعظيم من الامور خلقنا
كل يوم يحيط آجالنا الدهر
لا نبالي ولا ندره غرامنا
من رجونا لده دنيا وصلنا

واذا كان الجمع همهم ، لم يبالوا امن حلال يجمعون ام من حرام :

ام حلال ولا يحل الحرام
ل وهذا البناء والخدام
ثم اين العقول والاحلام (٣)

ما نبالي امن حرام جمعنا
همننا اللهو والتكاتفى الما
كيف نبتاع فاني العيش بالدا

وانه ، وهو قلب النظر في هذه الدنيا الزائلة ، تتضح له تفاهة هذا الصراع على الحياة :

(١) الديوان ١٥٢

(٢) الديوان ٢٣٩

(٣) الديوان ٢٣٩

لقد لعبت وجدّ الموت في طلبـي
لو شمرت فكرتي فيما خلقت لــــه
سبحان من ليس من شيء يعاد لــــه
وان في الموت لسي شغلا عن اللعب
ما اشتد حرصي على الدنيا ولا طلبـي
ان الخريص على الدنيا لفي تعــــب (١)

ومن مظاهر هذا التكالب الذي يعيبه ابوالعتاهية على الناس : الحريص - وهو
عنده من جملة المعاييب التي ابتلي بها مجتمعه ، فاسمعه يقول :

جمعت من الدنيا وحزت ونيتــــا
وما لك مما يأكل الناس فيرــــما
وما لك الا كل شيء جعلتــــه
وما لك الا ما وهبت وامضيتــــا
اكلت من المال الحلال فانيتــــا
امامك لا شيء لغيرك بقيتــــا (٢)

واستمع اليه يخاطب مجتمعي الاموال يبصرهم بما في الحريص من مذلة :

اذا المرء لم يعتق من المال رقه
الا انما مالي الذي انا منفقــــي
اذا كنت ا مال فبادر به الــــذي
تملكه المال الذي هو مالكــــه
وليس لسي المال الذي انا تاركه
يحق والا استهلكته هوالكــــه (٣)

وانه ليعيب على الجامعين جمعهم ينفقون في ذلك العمر ثم يمضون ويخلفونه لورثتهم
وانما سبيل المال الحق عنده الانفاق في طاعة الله ، لا الامساك في طاعة الشيطان :

يا جامع المال في الدنيا لو ارثــــه
لا تمسك المال واسترض الــــه
هل انت بالمال بعد الموت تنتفع
فان حسبك منه الرى والشبيــــع (٤)

(١) الديوان ٢٢

(٢) الديوان ٤٦

(٣) الديوان ١٩١

(٤) الديوان ٢٥٦

وما دام المرء يمضي وماله وراءه تتداوله الايدي ، فليس له اذن الا الذكر

الحسن والسمل الصالح :

ان مال المرء ليس لله
 ما له ما يخلفه
 في سبيل الله انفسنا
 منه الا ذكره الحسن
 بعد الا فعله الحسن
 كلنا بالموت مرتنا (١)

وفكرة الفناء مقرونة بفكرة المال :

ماذا تؤمل لا ابا لك فسي
 مال تموت واننت تمسكه (٢)

فما دام الموت واقعا لا محالة على الانفس والاموال فليحسن استغلال هذا المال :

ما لم تكن لك فيه منفعة
 انفق فان الله يخلفه
 ما ملكت فلست تملكه
 لا تصب مذموما وتتركه (٣)

وها هوذا يعيد القول في هذا الرأي فيقول :

أنا لفي دار نرى الاكثار لا
 أخي ان المال ان قدمته
 أخي كل لا محالة زائل
 أخي شأنك بالكفاف وخل من
 يبقى لصاحبه ولا الاقبالا
 لك ليس ان خلفته لك مالا
 فلمن نراك تثر الامساوا لا
 اشرى ونافس في الحطام وغالسي (٤)

وخلاصة رأيه في هذا المال انه يجب ان يفرق في وجوه الخير :

خير سبيل المال تفريقه
 في طاعة الله وتمزيقه (٥)

(١) الديوان ٢٥٣

(٢) الديوان ١٩٢

(٣) الديوان ١٩٢

(٤) الديوان ٢١٣

(٥) الديوان ١٧٥

وهو ان يذم الحرص ويندد بالتكالب على موارد الرزق يلتمس الخلاص من هذه الآفات بالقناعة
فيدعو اليها جاهداً :

الحرص لثم ومثله الطمّح	ما اجتمع الحرص قط والسورع
لو قنع الناس بالكفاف اذا	لا تسعوا في الذى به قنعوا
للمرء فيما يقيمه سعفة	لكنه ما يريد ما يسع (١)

وانك لتراه يبديء - في فضائل القناعة - القول ويعيد ، اغراء للناس بها وحضاً عليها :

ما شرف المرء كالقناعة	والصبر على كل حادث يقنع
لم يزل القانعون اشرفنا	يا حبذا القانعون ما قنعوا (٢)

ار :

لما حصلت على القناعة لم ازل	ملكاً يرى الاكثار كالاقلال
ان القناعة بالكفاف هي العنسى	والفقرعين الفقرفى الاموال (٣)

ار :

وقنع المرء يحمي عرضة	ما القرير العين الا من قنع (٤)
----------------------	--------------------------------

ويراد قد الدعوة الى القناعة عنده ، الحضر على ابتغاء الآخرة والتزود لها بالعمل الطيب :

امامك يا نومان دار سعادة	يدم النما فيها ودار شقاء
خلقت لاحدى الغايتين فلا تتم	وكن بين خوف منهما ورجاء
وفي الناس شر لو بدا ما تعاشروا	ولكن كساه الله ثوب غطاء (٥)

ذلك ان في الآخرة الخلاص من هذه الحياة التي ينغصها الموت :

قد رأيت الدنيا الى ما تصير	كل شيء منها صغير حقير
----------------------------	-----------------------

(٤) الديوان ١٥٢

(٥) الديوان ٣

(١) الديوان ١٤٧

(٢) الديوان ١٤٨

(٣) الديوان ١٩٩

أنا في حيلة التخلص منها
هو ربي وحسبي الله ربي
وعلى ذلك الآله قدير
فلنعم المولى ونعم النصير (١)

والتقى هو الزاد الذي يتزود به للآخرة في نظر ابي العتاهية :
وما لا مريء من نفسه وتليده
وما نال عبد قط فضلا بقوة
لنا خالق يعطي الذي هو اهله
وطارقه إلا تقاه وبذله
ولكنه من الآله وفضله
ويعفوا ولا يجزى بما نحن اهله (٢)

ج - الاستغلال السياسي

هو ثالث الشرور التي يقاسيها المجتمع العباسي ، والتي ادت في رأى ابي العتاهية
الى فساد هذا المجتمع . اول ما يأخذه ابو العتاهية على الحياة السياسية العباسية
المضطربة : التنافس على السلطان :

حب الرئاسة اطفى من على الارض
فحسبي الله ربي لا شبيه به
ان القنوع لزيد ان رأيت به
حتى بغى بعضهم منها على بعض
وضعت فيه كلاً بسطي ومنقبضي
كنت الغني وكنت الوافر العريض (٣)

- (١) الديوان ١٠٣
(٢) الديوان ٢٣٥ - وسيرد ذكر القناعة والآخوة والتقى كثيراً في كلامه عن الموت والحياة
وسنقفل رأيه في ذلك بعض الشيء حينذاك .
(٣) الديوان ١٢٩

وانك لتلمح من خلال ابياته تطاحنا سياسيا واثرة ومطامع واهواء تهطرع جميعا .
نتبين هذا في قوله :

ولربما تخطي الفراسه	م	الله يحفظ لا الحراسه
تفاقت فيه النفاسه		طلب الرئاسة ما علمت
بعضا على طلب الرئاسة (١)		والناس يخبط بعضهم

ومن مظاهره : التدجيل والتجارة بالعقائد - فطلاب الوجاهة والنفوذ السياسيين
يستبيحون المحرمات ، ويقطعون ما امر الله ان يوصل ، او يصلون ما امر ان يقطع ، ويستهيئون
بكل مكرمة ، ويتاجرون بكل عقيدة :

ويجعل الحب حرما للمحبين	حب الرئاسة دا ، يخلق الدينا
فلا مروءة يبقي لا ولا دين (٢)	ينفي الحقائق والارحام يقطعها

حتى اذا هتف :

يطغى ويحدث بدعة وضلا لا (٣)	أخسي من عشق الرئاسة خفتان
-----------------------------	---------------------------

ادركت انه يحاذران تقع الامة فيما وقعت فيه قبل ذلك . وتبينت ان نار الفتنة واصطراع
الساسة وبدعهم وتنافسهم على حطام الدنيا ، كانت جميعا من ذبول هذا الفساد السياسي
الذي عم مجتمع بني العباس . وفي مثل هذه الحال يفتقد الناس المصلح فلا يجدون
سوى زمرة من الدجالين المرائين :

(١) الديوان ١٣٣

(٢) الديوان ٢٨٠

(٣) الديوان ٢١٥

يا واعظ الناس قد اصبحت متهما
 كاللبس الثوب من عرى وخزيتيه
 واعظم الائم بعد الكفر نعمطيه
 عرفانها بعيوب الناس تبصرهـــــــــــــــــا
 اذ عبت منهم امورا انت تأتيها
 للناس بادية ما ان يواريتها
 في كل نفس عماها عن مساويتها
 منهم ولا تبصر العيب الذي فيها (١)

شر في الخلق ، وشر في الاجتماع ، وشر في السياسة : نفاق وغدر ، لهو وحرص ،
 تنافس على النفوذ والعرض الزائلين . هذا ما رآه ابو العتاهية في المجتمع الذي
 عاش فيه فحكم عليه من اجل ذلك بالفساد ، ونقض منه يديه . و " الناس على
 دين ملوكهم " - كما يقولون - ولذلك لا يعجب ان يجد الناس من الفساد
 على نحو ما قال :

ايا عجبنا للناس في طول ما صهوا
 يقولون نرجو الله ثم افتروا به
 تصابى رجال من كهول وجمله
 فيما سوءة للشيب ان صار اهلته
 اكب بنو ولد نيا عليها وانهم
 وفي طول ما اغتروا وفي طول ما لهوا
 ولو انهم يرجون خافوا كما رجوا
 الى اللهو حتى لا يباليون ما اتوا
 اذا هيجتهم للصبأ صبوة صبوا
 لتنهاهم الايام عنها لو انتهموا (٢)

الناس في ضلالة يعمهون : كذب ورياء واختلال في الموازين . فليندب جيله :

يا رب جيل قد سمعت به
 وجميع ما نلهوبه مرحـــــــــــــــــا
 والناس في رتع الغرور كـــــــــــــــــا
 ورأيت قد همدت خضار مـــــــــــــــــه
 من لذة قالموت هاد مـــــــــــــــــه
 رتعت حمى المرعى بهائم مـــــــــــــــــه (٣)

(١) الديوان ٢٩١

(٢) الديوان ٢٩٦ - ٢٩٧

(٣) الديوان ٢٥٠

فإذا سألته تفصيلا قال :

زمن مكاسب اهلـه مذخورة
 زمن تحامى المكرمات سراته
 زمن هوت اعلامه وتقطعــــــــــــــــت
 دخلا فروع اصوله الأثام
 حتى كأن المكرمات حرام
 قطعا فليس لاهله اعلام (١)

وبكلمة اخرى ، فزمانه - في ما يرى - زمان تعطلت فيه السنن والاخلاق ، وانقلبت
 الاوضاع والقيم ، فحلل الحرام وحرم الحلال ، وخطت منه العدالة الاجتماعية كما يتبين
 من هذه القصيدة :

م	نصائح متواليه	م	من مبلغ عنى الامــــــــــــــــار
	اسعار الرعية غاليه	م	انى ارى الاســــــــــــــــرار
	وارى الضرورة غاشيه		وارى المكاسب نــــــــــــــــزره
	ثحة تمر وفاد يــــــــــــــــه		وارى غموم الدهــــــــــــــــر را
	مل فى البيوت الخاليه		وارى اليتــــــــــــــــامسى والارا
	يسمو اليه وراجيه		من بين راج لــــــــــــــــم ينزل
	ضعاف غاليه	م	يشكون مجهدة باصــــــــــــــــوات
	مما لقوه العاقبيه		يرجون رفقك كى يــــــــــــــــروا
	للعيون الباكيه	م	من يرتجى للناس غيــــــــــــــــرك
	تمسى وتصبح طاريه		من مــــــــــــــــصبيات جــــــــــــــــوع
	ت وللجسوم العاريه		من للبطون الجائــــــــــــــــعا
	اذا سمعنا الواعيه	م	من لا رتباع المسلميــــــــــــــــن
(٢)	من الرعية شافيه	م	القيت اخبارا اليــــــــــــــــك

(١) الديوان ٢٤٤

(٢) الديوان ٣٠٣ - ٣٠٤

الناس في ضيق اقتصادي ، فقر وجوع وعري ، ثم ظلم واصوات تحجب عن
 جدران البلاط . وهذا ابوالعتاهية يبلغها الخليفة بأدبه النافذ ، تلك
 اذن حال الغالبية الساحقة من المواطنين كما رآها ابوالعتاهية ، بطون جائعة ،
 وجسم عارية ، وشعب بائس محروم . وهذه مصادر الرزق ، على ما يبدو له ، ضئيلة
 محتكرة في ايد قليلة ، والدولة مقصرة في واجباتها الاجتماعية كما نلاحظ من خلال
 القصيدة .

والواقع ان هذا الوصف التفصيلي لسوء مجتمعهم ، يكاد لا يظهر الا في هذه
 القصيدة . وما تبقى وصف وتصوير ينطبقان على عصره كما ينطبقان على اي عصر فاسد -
 غدر ونفاق ورياء ، وفقدان وفاء ، وتكالب على المال والنفوذ . واي مجتمع يشهري
 لا يكون فيه غدر ونفاق ورياء ، ولا ينعدم فيه الوفاء ويشتد الحرص على مغريات الدنيا ؟
 واذا تلمست له العذر في ذلك ، فقل ان مجتمعه هو الحياة كلها ، ونقائص مجتمعه هي
 نقائص الحياة .

= الفصل الثالث =

= ٤ =

الحياة والموت في شعراي العتاهية

سنرى ان قوام نظرة ابي العتاهية الى الدنيا ما رآه من زوال هذه الدنيا وغدورها .
اما نظرتة الى الموت فتقوم على رهبة هذا الموت وشمولته وغدوره . وسنراه بعد ذلك يخلو
الى نفسه خائفا ، يائسا ، يحض على التقوى ، ويغرى بالزهد في الدنيا والعمل للآخرة .

ابوالعتاهية والدنيا :

قلنا ان رأى ابي العتاهية في مجتمعه ، هو رأيه في كل مجتمع فاسد . وهو
بالتالي رأيه في الحياة كلها . فاذا ساء ظنه بالمجتمع ، فذلك لانه رأى الناس فيه مخادعين
ومنافقين ، اذا نعت بالفساد والاختلال فلانه وجد الحياة كلها نشازا وانحرافا ، فكل ما في
الدنيا في اعتقاده باطل . ويعيوب هذه الدنيا كما بدت له كثيرة ، لكن يمكن اجمالها فسي
عييبين بارزين :

(١) - الزوال : وابوالعتاهية لا يفتأ يقلب النظر فيها ، ويبدى القول ويعيد ،
فاذا الصورة تكبر او تصغر ، وتتمع او تضيق ، ولكنها لا تخرج عن الاصل الذي رسمه
لها ، قال :

سريع تداعبها وشيك فناؤها
تتكرت الدنيا وحان انقضائها

الا نحن في دار قليل بقاؤها
نزود من الدنيا التقى والنهى فقلها

غدا تخرب الدنيا ويذهب أهلها
ترقى من الدنيا الى اى غاية
جميعا وتطوى ارضها وسماؤها
سموت اليها فالمنايا وراءها (١)

وحقيقة الغناء هذه تنغم على ابي العتاهية دنياه ، حتى يسرف في التشاؤم واليأس :

هب الدنيا تماق اليك عفوا
فما ترجو بشي ، ليس يبقى
وحقك كل ذا يفتى سرعاً
ولا شي ، يدوم مع الليالى (٢)

واى حياة تلك الحياة ؟ :

انما انت مستعير لما سـو
كيف يهدى امرؤ لذاته ايبـا
ف تردن والمعـار يـرد
م عليه الانفاس فيها تعـد (٣)

وانذا ذكرنا ان ابا العتاهية نشأ فقيراً ، محروماً ، يحس بالضعة والنقص ، ادركنا مصدر غلوائه في تيهه الدنيا ودمها . فلا غرو انما اقبل على اصحاب الثراء والجاه ، الذين يضمن لهم نعمة واسى ، يوسعهم تسفيها وتخبيلا ، ويحضهم على التخلي عن هذه الشؤون التي تلهف عليها في يوم من الايام . وبم يزيّن لهم ذلك ؟ انه يسخر بيانه القوى المعبر الطيخ من اجل ارهابهم وتشخيص آلام الحياة وشقاها وتفاهتها ، فسيعد الى تكرار الفاظ معينة او معان معينة ، وفلسفة معينة ليزداد تأثير دعوتهم وليتضح قصده ، ويتأصل المعنى الذى يرمي اليه في نفوس سامعيه . وهذا يفسر كثيراً ما يرين على زهده من تكرار « وليضرب لهؤلاء المغرورين امثلة حية ينتزعها من صميم حياتهم :

(١) الديوان ١٠

(٢) الديوان ٢٠٦ - ٢٠٧

(٣) الديوان ٧٨

اسمت قصرك حيث السيل والغرق
 وشربها غصص او صفوها زنبق
 فانظر لنفك قبل الموت يا مذق
 يمتد منك اليه الطرف والعنق
 الا وانت لها في ذاك معتنق
 بعد الرحيل بها ما دام لي رمق (١)

يا من بنى القصر في الدنيا وشيده
 لا تغفلن فان الدارقانيمة
 والموت حوض كويه انست وارده
 مالي اراك وما تنفك من طمع
 تدم دنياك اذا لا تبوح بسبه
 فلو عقلت لاعدت الجهاز لها

فما دامت الدنيا شائمة بهذا الغناء ، مضيعة للجهد والكبد ، فهي حريصة بالمذمة
 في رأيه :

ولست ارى حيا لشيء يخلد
 سقطت الى الدنيا وانت مجرد
 متاع قليل يضمحل وينفد
 فاصبح محروما وقد كان يحسد
 وما بال شيء ذمه الله يحمد (٢)

الا كل مولود فللموت يولد
 تجرد من الدنيا فانك انما
 وافضل شيء نلت منها فانسه
 وكم من عزيز اعقب الدهر غيرة
 فلا تحمد الدنيا ولكن ذمها

وكيف لا يذمها وساعاته فيها ومعاشه قد قدرت عليه؟ :

ينالك فيها ذلة وصغار
 ولا لك فيها ان عقلت قرار
 سواع وايام تمر قصار
 يسوقك ليل مرة ونهار
 يعارلرد ما طلبت يعار (٣)

الا انما الدنيا عليك حصار
 وما لك في الدنيا من الكد راحة
 وما عيشها الا ليال قلائل
 وما زلت مزموما تقاد الى البلى
 وعارية ما في يدك وانما

دنيا تحفل بالنصب والاذى ، يحفها البلى من كل جانب ، وتحصى فيها على المرء
 الانفاس ، وتتعد الجرع ، فاي خير فيها لمن له نفسية ابي العتاهية الخائفة القلقة ،
 المضطربة ؟ :

(١) الديوان ١٧٢

(٢) الديوان ٧٤

(٣) الديوان ٩٢-٩٣

اعيد ذلك ان تسرب عيش دار
 بدار ما تزال لساكنيها
 الا ان اليقين عليه نور
 وان الله لا يبقى سواه
 وكم عاينت من ملك عزيز
 وكم عاينت مستلبا عزيزا
 ود ميت الخدود عليه لطمسا
 ألم تر انما الدنيا حطام
 قليلا ما يدوم لها سرور
 تهتك عن فضائحها الستور
 وان الشرك ليس عليه نور
 وان تك مذنباً فهو الغفور
 تخلي الاهل عنه وهم حضور
 تكشف عن حلاله الخدور
 وعصبت المعاصم والنحور
 وان جميع ما فيها غرور (١)

فلا يعرّن بها احد ولا يأمنّتها :

اراك لدنياك مستوطننا
 اغرك منها نهار يضيء
 فلا تحسب الدار دار الغرور
 الم تدر انك فيها غريب
 وليل يجن وشمس تغيب
 فتصفوا لها حباها او تطيب (٢)

وليتعظ باحداثها :

يا ساكن الدنيا لقد اوطنتها
 وشغلت قلبك عن معارك المنى
 يا ساكن الدنيا كأنك خلت انك
 اذكر احبتك الذين شكلتهم
 وامنتها عجباً فكيف امننتها
 وخذعت نفسك بالهوى وفتنتها
 خالد فجمعتها وخزنتها
 اذكر رهونا في التراب رهنتها (٣)

وسنرى با العتاهية في كلامه عن الموت خائفا ، جزعا . فاذا نفر من الدنيا لانها زائلة
 فانية ، فلانه يهرب الموت ويخشاه ، ولانه يتسلى بدم الدنيا واستقصاء معايبها عن خوفه
 المقيم . فليتنفن في عرض مثالب الدنيا ، ولنصغ اليه وهو يتحرى مأخذاً ثانياً من مأخذه عليها :

(١) الديوان ١٠٧ - ١٠٨

(٢) الديوان ٢٧

(٣) الديوان ٥٨

لا تأمن الدنيا على غدرها
كم ستري في الناس من هالكها
فانظر سبيلا سلكوه ولا
اصبحت الدنيا لنا عيرة
قد اجمع الناس على ذمها
فكم غدرت من قبل امثالها
وهالك حتى ترى هالكها
تحسب بان لست له سالكا
والحمد لله على ذلكها
ولا اري منهم لها تاركا (١)

وهذا الغدر انما يتجلى بالأي العتاهية ، اكثر ما يتجلى ، في الموت • اصغ اليه

ينشد :

وبينما المرء تستقيم له
ما كذبتي عين رأيت بها
واي عيش والعيش منقطع
ويح عقول المستعصمين بدار
الدنيا على ما اشتهى اذا انقلبت
الاموات والعين ربما كذبت
واي طعم للذة ذهببت
الذل في اي منشب نشبت (٢)

واسمعه يقول :

قد رأيت القرون قبل تغانت
كم اناس رأيت اكرمت الدنيا
كم امور قد كت شدت فيها
هي دنيا كحبة تنفت السم
درست وانقضت سرعا وبانت
ببعض الغرور شم اهاننت
ثم هونتها عليك فهانت
وان حية بلمسها لاننت (٣)

وانه ليعجب كيف يغتر بها الناس وقد بلوا الوانا من غدرها :

وما زالت الدنيا تكدر صفواها
بلينا من الدنيا على حينا لها
السنا نرى الايام يجرى صروفها
السنا نرى غد الزمان باهلها
وما زالت الدنيا تنغص درها
بدار غرور ويحها ما اغرها
السنا نرى حتى الليالي ومرها
السنا نرى عطف المنايا وكرها (٤)

(١) الديوان ١٨٦

(٢) الديوان ٣٨

(٣) الديوان ٥٠-٥١

(٤) الديوان ١٢٥

فإذا هي لا تستقر على حال • فليناج نفسه هذه المناجاة الرقيقة ، وليستعن بهذه
الافانسي العاطفية يكررها بلفظ ناعم عذب ، على التعبير عن حاله النفسية المشوقة الى
الحياة والخائفة من الحياة :

طالما سحبت خلفي الشبابا	طالما حلا معاشي وطالبا
طالما ناهزت صحبي الشرابا	طالما طاعت جهلي ولعبي
فرماني سهمه واصابا (١)	طالما كنت احب التصابي

ولكن الناس قلما يتعظون بها :

فكم تلاعبت الدنيا بامثاله	مسكين من غرت الدنيا بآماله
بطول اذ باره فيها واقباله	ينسى الملح على الدنيا منيته
حتى تقتصه من جوف سراله	وما تزال صروف الدهر تختلله
شيئا يدوم من الدنيا على حاله	ليس الليالي ولا الايام تاركسه
ان يخطر الموت في الدنيا على باله (٢)	يا بوس للجاهل المغرور كيف ابي

الست ترى في تكراره " يا ساكن الدنيا " او " ألسنا نرى " او " طالما " ؟
معنى خاصا ؟ بلى انه التوكيد وابتغاء شدة التأثير . وهكذا نرى الموت في
وجه ابي العتاهية يلاحقه شبهه اينما حل ، لكنني به الحرياء تتبدى بشتى الالوان
فلن نتوقع منه غير الطعن فيها والحط منها :

انت في دار ترى الموت فيها	(٣)	مستشيظا قد ازل الرقابا
ابت الدنيا على كل حبي		آخرا الايام الا ذهابا
انما تنفي الحياة المنايا		مثلما ينفي المشيب الشبابا

(١) الديوان ١٢٥

(٢) الديوان ٢٨

(٣) كذا في الديوان ولعلها محرفة عن اذل (بالذال)

ما ارضى الدنيا على كل حي
 اي عيش دام فيها لحي
 اي ملك كان فيها لقوم
 انما داعي المنايا ينادي

نالها الا اذى وعذابا
 اي حي مات فيها فآبا
 قبلنا لم يسلبوه استلابا
 احطوا الزاد وشدوا الركابا (١)

فوجه الحياة في نظره هو وجه الموت ، وصوتها هو صوت الموت ، وروحها هو روح الموت .
 فليصمها بالصدر والمرارة ، وليحكّم عليها بالخسران ، وليلجأ مرة اخرى الى التكرار :

فنون رداك يا دنيا
 فانت الدار فيك الظلم
 وانت الدار فيك الهم
 وانت الدار فيك الغد
 وفيك الحبل مضطرب
 وفيك لساكنيك الغيب
 وملكك فيهم دول
 كأنك بينهم كسرة

لعمري فوق ما اصـف
 والعدوان والسـرف
 والاحزان والاسـف
 والتغيب والكلـف
 وفيك البال منكـسف
 والآفات والتظـف
 بها الاقدار تخطـف
 تراسى ثم تلتـف (٢)

واذا كان هذا شأنها من الزوال والغدر ، فلا غرو اذا الح في الدعوة الى اعتزالها ومجانبة
 شرورها :

اهرب بنفسك من دنيا مظلمة
 مر مذاقة عقباها واولهـا
 ان ذقت حلواها عادت لي عواقبها

قد اهلكت قبلك الاحياء والعلـلا
 غدارة تكثر الاحزان والعلـلا
 مرارة يحتويها كل من اكـلا (٣)

وانه وهو يحط من شأنها ليسوق لك الادلة على صحة رأيه :

ما انت يا دنيا بدار اقامة
 وخفقت يا دنيا بكل بكيـة

ما زلت يا دنيا كفي ظلال
 ومزجت يا دنيا بكل وسـال (٤)

(١) الديوان ٢٩

(٢) الديوان ١٦٨

(٣) الديوان ٢١٢

(٤) الديوان ١٩٩

كأنه وهو يكرر نداءه المتحرق شوقا اليها والتياغا منها ، يرسم لقارئه صورة ناطقة
له وقد جاذبه حب الدنيا ، فكيف يقبض قلبه بالبهجة وشبح الموت ما مثل ما ناظره ؟ :

كأن محاسن الدنيا سراب واى يد تناولت السرابا
وان يك منية عجلت بشيء تسربه فان لها ذهابا (١)

ولكن سرعان ما يطغى عليه الخوف فيرى فيه الراحة من كل عناء بما في ذلك عناء السعي
والكد :

فيا عجباً تموت وانت تبني وتتخذ المصانع والقبابا
ألم تر ان غدوة كل يوم تزيدك من منيتك اقترابا (٢)

اوليست الحياة عنده تعني الموت ولا شيء غير الموت ؟ :

ان كانت الدار ليست لسي بياقية فما عئاسي بتأسيس وتشبيد (٣)

وفيم النصب وهو يغرس البذرة صغيرة ثم يتعهد لها ، فاذا ما اينعت وحن قفافها نودي
للرحيل ؟ :

فيا باني الدنيا لغيرك تبني ويا عامر الدنيا لغيرك تعمير (٤)

فليتعطل كل جهد ، ولتخدم كل عزيمة :

أليفك يا دنيا كثير غمومه فليس نجاة منك غير اعتزالك (٥)

(١) الديوان ١٤

(٢) الديوان ١٤-١٥

(٣) الديوان ٨٥

(٤) الديوان ١١٦

(٥) الديوان ١٨٩

وأي رجاء أزاء موت لا يستثنى أحدا ؟

لدا للموت وابنوا للخراب
لمن نبني ونحن السى تراب
الا يا موت لم ار منك بـدا
فلكم يصير السى تهاب
نصير كما خلقنا من تراب
اتيت وما تحيف وما تحاسي (١)

او قوله :

يا ساكن الدنيا اتعمر مسكنا
أما وجدت الدعوة صريحة الى شل الجهود ؟ اسمعه مرة اخرى :

أيا جامعي الدنيا لمن تجمعونها
وكم من ملوك قد رأينا تحصنت
وتبنون فيها الدور لا تسكنونها
فعطلت الايام منها حصونها (٣)

واسمعه ينادى :

ويا جامع الدنيا لغير بلاغته
وكم قد رأينا الجامعين قد اصبحت
ستركها فانظر لمن انت جامع
لهم بين اطباق التراب مضاجع (٤)

اذن فقوم تنفير ابي العتاهية من دنياه ، ومرد نغمته عليها هو الموت . فلنشرع في
استقصاء معالم آرائه فيه ، وهو الشق الثاني من هذا الفصل .

(١) الديوان ٢٣

(٢) الديوان ٢٦٧

(٣) الديوان ٢٨٣

(٤) الديوان ١٥٠

ابوالعناهية والموت :

رأينا ابا العناهية يأخذ على الدنيا - اول ما يأخذ - انها زائلة
فانية . فاذا هو خائف مذعور ، يطارده شبح الموت في كل حين ، ويتمثل له
وجهه في كل شيء يحيط به ، ويطالعه انى اتجه . فلا عجب ان تحفل زهدياته
بذكر الموت ، وتصوير احواله وآفاته . واذا استقصينا شسره في ذلك وجدناه قائما
على ثلاث نظرات رئيسية :

(١) - رهبة الموت : ابوالعناهية يخشى الموت ويفرق لذكره ، ولا يزال
يذكر الناس باحواله وآامه ليتعزى بخوفهم عن خوفه ، وليرهبهم به عساه يدفع
خوفه المقيم في جزعهم وقلقهم . فلن نستغرب اذا سمعناه يكرر المعاني ويعيد
عرض الفكر الواحدة ، ولن نستغرب ان يحثهم على الانتباه من غفلتهم ، والانصات الى صوت
الموت الرهيب المخيف ، وان في جزعه من الموت وخوفه منه ، بعض التأويل المعقول
لنقمته على الدنيا وتشاومه :

وللموت داع مسمع غير اننسي ارى الناس عن داعيه في غفلات
فله عقلي ان عقلي لناقص ولو تم عقلي لا غنمت حياتي (١)

فاذا رأى ان الناس عنه غافلون ، واذا ظن انهم بوعظه وتبكيته لهم سيرعرون ، لجأ

الى التنديد به ، والتحذير منه :

مالي رأيتك راكبا لهواك
انظر لنفسك فالمنية حيث ما
اظننت ان الله ليس يراك
(١) وجدت واقفة هناك حذاك

كيف لا يتعظ الناس وكيف لا يروعون وصوت الموت يهم الاذنين ؟

للموت داع مزعج وكأنه
وليم فقرك عدة ضيعته
لتجهزن جهاز منقطع القوى
(٢) قد قام بين يديك ثم دعاك
والمرء افقر ما يكون هناك
ولتشحطن عن القريب نواك

وظل الموت يطالعه في كل ناحية :

ارى الموت لي حيث اعتمدت كميناً
سيلحقني حادى المنايا بمن مضى
يقين الفتى بالموت شك ، وشكته
علينا عيون للمنون خفية
(٣) واصبحت مهموماً هناك حزينا
اخذت شمالا او اخذت يميناً
يقين ، ولكن لا يراه يقيناً
تدب ديباً بالمنية فينا

وان رهبة الموت هذه قد ملكت عليه لبه واعصابه ، فشغل بها عن كل شيء آخر :

واصبح لي في الموت شغل عن الصبا
اذا انا لم اشغل بنفسي فنفس من
وفي الموت شغل لذوى العقل
من الناس ارجو ان يكون بها شغلي (٤)

واذا قلب شاعرنا نظره في هذا الموت ، وفي الكون حوله ، ثبتت هذه الرهبة في

نفسه ان هذا الموت عام في الناس جميعا ، لا يغادر منهم صغيرا ولا كبيرا ، ضعيفا

او قويا . وتلك نظرتة الثانية الى الموت يستقيها من :

(١) الديوان ١٨٣

(٢) الديوان ١٨٣

(٣) الديوان ٢٦٨

(٤) الديوان ٢٠٣

(٢) - شمول الموت :

الموت بين الخلق مشترك
 ما ضر أصحاب القليل وما
 عجا تشاغل أهـل ذى
 طلبوا فما نالوا الذى طلبوا
 لم يختلف في الموت مسلكهم
 لا سوقة يبقى ولا ملك
 اغنى عن الاملاك ما ملكوا
 الدنيا وما فيها لهم درك
 منها وفاتهم الذى دركوا
 لا بل سبيلا واحدا سلكوا (١)

أرأيت اليه كيف وجد في اشترك الناس جميعا في الموت لونا من ألوان المساواة التي
 كان يصبوا اليها في حياته ، ومعنى من معاني التعويض عن الضعة التي كان يتحسبها
 كلما افتقد عز الحساب ، وجاء الاصل الزكوي الكريم ؟ فاذا عاب على بني آدم اقبالهم
 على الدنيا ونسيانهم الموت ، واذا خوفهم الموت هذا وحذرهم غولته ، فانما يدفعه
 الى ذلك دافعان : دافع الخوف كما شاهدنا في كلامنا عن رهبة الموت ، وكما
 في قوله :

وانني ممن يكره الموت والبلسى
 ايا هادم اللذات ما منك مهرب
 ويعجبه ربح الحياة وطيبها
 تحاذر نفسي منك ما سيصيبها (٢)

(وليس بعد هذا الاعتراف الصريح من شاعرنا اعتراف بحبه للحياة وكرهه للموت وخوفه
 منه) ، والدافع الآخر دافع المساواة بين الناس . وفي ذلك تعويض عن النقص
 القديم الذى كان يستولي عليه دائما . فاذا رأى ان الموت عام في البشر جميعا لا
 يستثنى منهم احدا ، وان فيه مستوى الحر والمولى ، والغني والفقير ، والقوى

(١) الديوان ١٨٦

(٢) الديوان ٣٤

والضعيف ، وسيان فيه ذوالاصل الكريم وذو الاصل الوضيع ، بردت سموم
 نغمته بعض الشئ ، وتطلع الى المجتمع يبتغي بترهيبه بالموت تعطيل جهوده والدعوة
 الى القنوع والكفاف على امل المساواة بمن اعجوه اللحاق بهم ثروة او همة او علماء ،
 وليتفنن ما شاء له التفنن في تصوير احوال الموت وتفاهة الحياة ، وليقض على آخر
 خيط من خيوط الآمال في النفوس :

غداً تخرب الدنيا ويذهب اهلها	جميعاً وتطوى ارضها وسماؤها
ترق من الدنيا الى اى غايــــــــــــة	سموت اليها فالمنايــــــــــــا وراءها (١)

وانه ليجعل من نفسه مثلاً على الانخداع بالدنيا والسهو عن الموت ، ليتاح له ان
 يوسع المجتمع في شخصه لوما وتقرعاً :

نسيت منيتي وخذعت نفسي	وطال علي تعميري وفرسي
وكل ثمينه اصبحت اغلــــــــــــبي	بها ستباع من بعدى بوكــــــــــــس
وما ادري وان املت غمــــــــــــرا	لعلي حين اصبحت لست افســــــــــــي
وساعة ميتتي لا بد منهــــــــــــا	تعجل منقلي وتحل حبــــــــــــسي
اموت ويكره الاحباب قرــــــــــــبي	وتحضر وحشتي ويغيب انــــــــــــسي (٢)

حتى يصل الى الذين يبغى الوصول اليهم من المتفوقين عليه بين غني
 الا يا ساكن البيت الموشــــــــــــي

ستسكنك المنية بطن رمــــــــــــس (٣)

وصاحب سلطان :

لا تامن الموت في طرف ولا نفس	وان تمنعت بالحجاب والحرس
فما تزال سهام الموت نافــــــــــــذة	في جنب مدبرع منها ومــــــــــــرس (٤)

(١) الديوان ١٠

(٢) الديوان ١٢٨

(٣) الديوان ١٢٨

(٤) الديوان ١٣٣

(٣) - غدر الموت :

في الحين الذي يرحب فيه ابوالعتاهية بالموت ، داعية مساواة ورسول

عدالة انسانية ، تجده منكرا عليه غدره :

فالله دار ما احث رحيلها وما اعرض الآمال فيها واطولا
 وكم من ذليل عز من بعد ذلته وكم من ربيع صار في الارض اسفلا
 وكم من عظيم الشأن في قعر حفرة تلحف فيها بالثرى وتسريلا (١)

وانه ليشتمن من هذا الموت الذي لا يرى ذمة ولا يخفر عهدا . كأنسي به
 وقد تعثل نفسه بين يدي ملك الموت يقوده الى النهاية التي قاد اليها الذين

رأى في موتهم بعض المساواة :

فكم من عزيز قد رأينا امتناعه فدارت عليه بعد احدى الدوائر
 وكم ملك قد ركب التراب فوقه وعهدى به بالاص فوق المناير (٢)

فليعلن موقفه من دهره القلب ، وليكرر في ذلك اللفظ او المعنى او كليهما معا :

ايا عجا للدهر لا بل لربيه يخرم ريب الدهر كل اخاء
 وشتت ريب الدهر كل جماعه وكدر ريب الدهر كل صفاء (٣)

وليحسن تصويره في قوله :

الست ترى للدهر نقضا واهراما فهل تم عيش لامرئ فيه اوداما

(١) الديوان ٢١٢

(٢) الديوان ١٠٠

(٣) الديوان ٢

لقد ابت الايام الا تقلبا
ونحن مع الايام حيث تقلبت

لترفع ذا عاما وتخفض ذا عاما
(١) فترفع اقواما وتخفض اقواما

اذن فليسيء الظن بالدهر ، وليوجس منه خيفة :

فلا توطن الدنيا محلا فانما مقامك فيها لا ابا لك اياما (٢)

وفي نفس ابي العتاهية من دهره ندي جروح قديمة ، لا يزال يتحسس مواضعها وآثارها
كلما جدد له الدهر عهد الغدر ، ولكنه قد بلاه فادرك كنهه ووقف على حقيقته :

اني حلبت الدهر اشطره
فتوتق دهرك ما استطعت ولا
فرايته لم يصقالي حلبه
تغرك فضته ولا ذهبه (٣)

وان له من حسن تفهمه للامور ، وطول تعرضه بشؤون دنياه ، ما يخفف عليه وقع الواقع المولم .
اسمعه ينشد هذا المعنى البسيط الذي لم تحجب بساطته ما فيه من نباهة الفكر والمعنية
الرأى ، ولم تقض فيه على اصالة التعبير :

لا تعتبين على الزمان فما
ولئن عتبت على الزمان لما
عند الزمان لعاتب عتبي
ياتسي به فقل ما ترضى (٤)

ويوجد لك نظرتك الى دهره بيت واحد رشيق :

أأمنت الموت والموت يا بـس
بك ولا يلام الا انقلاها (٥)

(١) الديوان ٢٤١

(٢) الديوان ٢٤١

(٣) الديوان ٣٤

(٤) الديوان ٥

(٥) الديوان ٢٨

دهر خوون ، قلب ، غادر ، يكمن فيه الموت ويترص الغناء • فليتعض به ، ولينفض
منه يديه ، وليتحول الى عالم يجهله لعل له فيه املا وعزاء - الى العالم الآخر -

ابوالعتاهية والآخرة :

طفنا مع ابي العتاهية في دنياه يائسا متشائما مذعورا ، يخيفه الموت •
ثم شاهدناه وقد تخلى عن دنياه واتجه بذهنه الى ربه يسأله حسن العقبى في
الآخرة • فقد ربطا دن بين الموت والآخرة ، وتلمس في هذا الشبح العزاء يتمثل
بالعظة يزوده بها هذا الموت • فاذا سمعته يندد بالموت ، ويعدد سوات الحياة ،
ويحث على التزود للآخرة ، فاعلم انه يعتصم بالآخرة خوفا من الموت وهلعا :

ففرق بيننا عجلا	كأن الموت قد نـزلا
ومعتبرنا لمن عقلا	كفى بالموت موعظـة
الذي لا يذكر الاجلا	الا يا ذاكر الامـل
لسمعتك ضارب مشـلا	وما تنفك من مشـل
ت في ان تحسن العمـلا (١)	وحيلتك التي للمـو

وهذا المعنى توضحه الابيات الآتية :

تفارت ايامي لعمري وما ادري	الا في سبيل الله ما فات من عمري
ولا بد من بعث ولا بد من حشر	فلا بد من موت ولا بد من بلى
على قدر الله مختلف يجري	وانا لنبلى ساعة بعد ساعة
تطول على من كان فيها الى الحشر (٢)	وما هي الا رقدة غير انها

(١) الديوان ٢٢٥

(٢) الديوان ٩٩ - ١٠٠ وواضع في هذه الابيات ايمانه بالبعث والحشر وهو

معنى انكره عليه غير واحد من الباحثين •

فلتكن الحياة اذن جسرا يعبر عليه الى العالم الثاني • ولكنه جسر غير
 موثّل الاسس ولا موثّد الدعائم ولا مأمون الجوانب • وقد يغريك ما يحرف به
 من مفاتن على ان ترتاده لتشرف منه على آفاق من اللذائذ ، وقد يقوى على حملك
 فترة من الزمن ، ولكنه سينهار بك في يوم من الايام لا محالة • فاذا اشرفت
 عليك الشمس من جنباته فلا تحسبها بشيرا بنهار يصبحك فيه السعد ، واذا
 هبت عليك النسمات فلا تخالها وسيلة توصلت بها الدنيا لتبرك بنسائمها :

الست تراك كل صباح يـرم
 لعمرك ما تهب الريح الأ
 تقابل وجهه نائبة تنوب
 نعاك مصرحا ذاك الهبوب (١)

ولكنه الموت ماثل في ذلك كله :

هو الموت الذي لا بد منه فلا يغلب بك الامل الكذوب (٢)

فما دام قد وطد عزمه على التوجه الى الآخرة بكل ما يملك من قوة وبأس ، فليتزود
 لها بالتقى وهو المفتاح الذي تتفتح به مصاريع ابوابها ، والسلاح الذي يقارع به
 خوفه وجزعه :

وما لا مرى من نفسه وتليده
 وطارفه الأ تقاه وبذله (٣)

لا مال ولا جاه ، ولا حسب ولا مجد ، ولا شيء مما يتنافس عليه الناس في الدنيا
 ينفع في الآخرة :

يا بانسي الدار المعد لها
 ومهد الفرش الوثيرة لا
 ماذا عملت لدارك الاخرى
 تغفل فراش الرقدة الكبرى (٤)

(١) الديوان ١٦

(٢) الديوان ١٧

(٣) الديوان ٢٣٥

(٤) الديوان •

وكثير ما ينفخ في الدنيا قد فات ابا العتاهية ، فلا بدع ان احس برضى وهو يهون
من شأنه وينفر منه ، ولا بدع اذا اعاضته عنه الدعوة الى التقى . فليأخذ في تزيينها
وتصوير محاسنها وليغربها :

اشد الجهاد جهاد السورى وما كرم المرء الا التقى (١)

وما كرم المرء عزولا ثراء :

وكل طريف لسه لذة
ولا شيء الا له آفة
وليس الغنى نسب في يد
وكل تليد سريع البلى
ولا شيء الا له منتهى
ولكن غنى النفس كل الغنى (٢)

واذا كان الموت قد القى في قلبه الرعب وزهده في الحياة ، فانه لم ينسه الآخرة ولم
يزهده فيها :

يا عين قد نعمت فاستنبهي
اكره ان القى حمامي ولا
لا بد من موت بدار البلى
ما اجتمع الخوف وطيب المنام
بد لحني من لقاء الحمام
والله بعد الموت يحيى العظام (٣)

بل انه ليخاف الآخرة كما يخاف الموت :

الموت باب وكل الناس داخله
الدار جنة خلد ان عملت بما
يا ليت شعري بعد الباب ما الدار
يرضى الآلة وان قصرت فالنار (٤)

فلا مال الا مال التقى :

وما لك غير تقوى الله مال وغير فعالك الحسن الجميل (٥)

(١) الديوان ٣

(٢) الديوان ٣

(٣) الديوان ٢٣٨ وتلاحظ الاشارة الى البعث في البيت الاخير .

(٤) الديوان ٩٦ وفي هذا البيت كذلك اشارة واضحة صريحة الى البعث .

(٥) الديوان ٢٠٥

ولا ثياب الأثياب التقى :

تقلب عريانا وان كان كاسيا (١)

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى

ولا شيء مما يتنافس عليه الناس مدعاة إلى الفخر إلا التقى :

غدا إذا ضمهم المحشر
والبر كانا خيرا ما يذخر
وهو غدا في حفرة يقبـر
وجيفة آخره يفخر (٢)

لا فخر إلا فخر أهل التقى
ليعلمن الناس أن التقى
ما أحق الإنسان في فخـره
ما بال من أوله نطفة

ففي التقى الفخر كله :

وحبك للدينا هو الذل والعدم
إذا صحح التقوى وان حاك أو جسم (٣)

إلا إنما التقوى هي العز والكبر
وليس على عبد تقى نقصـة

وابوالعناهية قد حجم وعيب عليه ذلك ! فان فاته في ذلك شرف ، ففي تقوى الله

كل الشرف :

فيداه بين مكام ومعصـال
تاجان : تاج سكينـة وجلال (٤)

وإذا اتقى الله امرؤ واطاعه
وعلى التقى إذا ترسخ في التقى

ولا تتسم تقوى امرئ بدون قناعة :

وكن عن الشر قصير الخطا (٥)

نعم الغرائض الأرض قانع بـه

(١) الديوان ٢٩٩

(٢) الديوان ١٠٣

(٣) الديوان ٢٤٣

(٤) الديوان ٢٩٥

(٥) الديوان ٦

ابو العتاهية ونفسه :

ما دام مذهب ابي العتاهية في الحياة قوامه الخوف من الحياة والتنفير منها ،

فليخل بنفسه يتدبر امر هذا النسق من المعاش ، وليقنع قبل كل شيء :

رجعت الى نفسي بفكري لعلها	تفارق من قد غرّها وانزلها
فقلت لها يا نفس ما كنت آخذًا	من الارض لو اصبحت املك كلها
فهل هي الا شبعة بعد جوعة	والا متى قد حان لي ان املها
ومدة وقت لم يدع مرما مضى	علي من الايام الا اقلها
ارى لك نفسا تبتغي ان تعزها	ولست تعز النفس حتى تذلهـا

(١)

ففي هذه القناعة عزاء لنفسه ، وفيها المفر من وجه الحياة المتجهم بالفناء :

ساقنح ما بقيت بوقت يـوم	ولا ابغي مكاثرة بمـال
تعالى الله يا سلم بن عمرو	اذل الحرص اعناق الرجال
هب الدنيا تساق اليك عفوا	اليس مصير ذاك الى الزوال ؟
فما ترجو بشيء ليس يبتقى	وشيكا ما تغيره الليالي
وحقك كل ذا يفنى سريعا	ولا شيء يدوم مع الليالي

(٢)

وحياة فيها فناء ، كثير عليها الكفاف في اعتقاد ابي العتاهية :

حسبك مما تبتغيه القوت ما اكثر القوت لمن يموت (٣)

ويرافق معنى القناعة عند ابي العتاهية معنى الاستسلام واطراح المطامع :

على الناس بالتسليم والبر والرضا فما ضاقت الحالات حتى توسعت (٤)

(١) الديوان ٢٣٠

(٢) الديوان ٢٠٦ - ٢٠٧

(٣) الديوان ٣٤٦

(٤) الديوان ٤٩

وهي قناعة مصدرها اليأس قبل كل شيء :

جمعت من الدنيا وحزت ومنيتنا
وما لك مما يأكل الناس يغير ما
وما لك إلا كل شيء جعلته
وما لك مما يلبس الناس غير ما
وما لك إلا ما وهبت وامضيتنا
أكلت من المال الحلال فاقنيتنا
أما منك لا شيء لغيرك ابقيتنا
كسوت والا ما لبست فابليتنا (١)

ولا تتم التقوى بدون الصبر :

وليس للمرء ما تمنى
هون عليك الأمور واعلم
واصبر إذا ما بليت يوماً
وليس للمرء ما تخير
ان لها مورداً ومصدر
فان لها ما قد سلمت أكثر (٢)

وانها لتحسن وتكمل باعتزال الناس • واليك فلسفة ابي العتاهية في ذلك يجعلها

بهذه الوصية :

رغيف خبز يا بس
وكوز ماء بارك
وغرفة ضيقة
او مسجد بمعزل
تدرس فيه دفتراً
معتبراً بمن مضى
خير من الساعات في
تعقبها عقوبة
فهذه وصيتي
طوبى لمن يسمعها
فاسمع لنصح مشفق
تأكله في زاوية
تسريه من صافية
نفسك فيها خالية
عن الورى في ناحية
مستنداً بساريه
من القرون الخالية
في القصور العاليه
تلهي بنار حاميه
مخبرة بحاليله
تلك لعمرى كافيه
يدعى ابا العتاهيه (٣)

(١) الديوان ٤٦

(٢) الديوان ١١٨

(٣) الديوان ٣٠٤ - ٣٠٥

فعنده ان زهده ناقص ما لم ينفض يديه مرة واحدة من غرام الدنيا وساكنيها :

يظن الناس بي خيرا واني	لشر الناس ان لم تعف عني
اجن بزهرة الدنيا جنونا	وانسي العمر فيها بالتمنسي
وبين يدي محتبس ثقيل	كأنني قد دعيت له كأنني
ولو اني صدقت الزهد فيها	قلبت لاهلها ظهر المجنون (١)

ففي هذه العزلة - كما رأيت - النجاة من الدنيا ، والسلوان عن شرورها . فاذا ما خلا ابوالعناهية بنفسه ، وقد اعتزل الدنيا وعكف على التأمل ، فليقلب نظره في ما حوله ، وليجزل قليلا في ارجاء نفسه ينقذها من الآثام والمعاصي ، وسلاحه في ذلك زجر النفس وتبكيها والانابة الى الله . وفي الحق ان من هذه القوائد ما يوحى بروحانية خالصة تلامس اعماق النفس :

لا بكين على نفسي وحق لييه	يا عين لا تبخلي عني بعبرتيه
لا بكين على نفسي فتسعدني	عين موقرة تبكي لفرقتيه
لا بكين ويبكي نفسي ذوو ثقتي	حتى العماث اخلائي واخوتييه
لا بكين فقد جد الرحيل الى	بيت انقطاعي عن الدنيا ورحلتيه
امسي واصبح في لهو وني لعب	ماذا اضيع في يومي وليلتيه
يا نفس ويحك ما الدنيا بياقية	فشمري واجعلي في الموت فكرتيه
اشكوا الى الله تضييقي ومسكتني	اشكوا الى الله تقصيري وقسوتييه (٢)

وليتبصر في احوال الدنيا ، وليستغفر ربه على ما قدم من ذنوب :

سبحان علام الغيوب	عجبا لتصريف الخطوب
تعري فروع الانس بي	وتجتني ثمر القلوب
حتى متى يا نفس تغتبر	ين بالامل الكذوب
يا نفس توبي قبيل ان	لا تستطيعي ان تتوبي
واستغفري لذنوبك	الرحمان غفار الذنوب (٣)

(١) الديوان ٢٦٣

(٢) الديوان ٣٠٠ - ٣٠٢

(٣) الديوان ٣١

وانها لذنوب كثيرة ،

واستر خطائي انك الساتر (١)

فاغفر ذنوبي انها جمعة

وليكرر آثام الليل واطراف النهار التضرع لله ، والندم على ما اقترف من شرور ، نشيدا روحانيا

رائعا :

مقر بالذنى قد كان منسى
وعفوك ان عفوت وحسن ظننى
وانت علي ذوقضل ومــــن
عضضت اناملى وقرعت سننى (٢)

الهي لا تعذبني فانسي
وما لي حيلة الا رجائــــي
فكم من زلة لي في البرايا
اذا فكرت في قدمي عليها

فيه الاقرار بالاثم والخوف من حساب الله :

بشمالي لشقوتى ام يمينى (٣)

ليت شعرى غدا اأعطى كتابي

ومن الحق بعد هذه الجولة الطويلة في زهدياته ، ان نلم شعث هذه المعالم

الزهدية ، ونتبين طريقه الزهدى بنظرة عابرة . فجماع القول في نظرته الى الحياة
ان لا خير فيها والموت يشوهها ويكدر صفوها . فاذا كان المرء فيها عابر سبيل فليقطع
صلته بها ، وليضن عليها بالجهد والسعي .

اما نظرته الى الموت ، فخلاصتها ذلك الخوف الشديد والرهبنة البالغة اللذان
يسيطران عليه ، ويحملانه على تصوير الموت صورا عديدة منكرة ، فاذا به مكب على وصف
اهواله ، ثم لا يلبث ان ينفلت من ذلك الى التحذير منه والاتعاظ به ، والتخلي لاجله عن
الدنيا ، والاستعداد للحياة الصحيحة - الحياة الاخرى - بالتقى والعمل الصالح ، واطراح

(١) الديوان ١٢٠

(٢) الديوان ٢٦٣

(٣) الديوان ٢٦٣

الميل للدينيا بتذليل النفس وترويضها على القناعة والصبر والاستسلام ، والعكوف
على الوحدة ، والاستغفار .

ولعلنا محقون في زعمنا - بعد ما رأينا من زهده - ان زهده يخلو من المبادئ
ولا يحمل فلسفة . ولقد صدق الاستاذ المقدسي حينما وصفه بقوله " وكان نسي
شعره يقلد الزهاد ورجال الدين تقليداً " (١) . قالوا قبح انه لم يعد فيما قاله حدود
الوعظ والنصح ، والتبشير والوعيد . ذلك انه خلو من التأمل والفكر . فانت اذ
تقرأ لزوميات ابي العلاء المعري مثلاً ، تستطيع ان تخرج من معظمها بمنهج له ايجابي
في الحياة ، كما في قوله :

الدين انصافك الاقوام كلهم
والمرء يعييه قود النفس مصحبة
وصومه الشهر ما لم يجن معصية

واي دين لا يسي الحق ان وجباً
للخير ، وهو يقود العسكر اللجبا
يفنيه عن صومه شعبان او رجباً (٢)

او :

الدين هجر الفتى اللذات عن يسر
فقد حدد الدين ، ورسم مفهومه العملي له في الحياة ، او قل وصف لك منهج الحياة

كما يراه :

فلا تأكلن ما اخرج الماء ظالماً
ولا بيضامات ارادت صريحه
ولا تفجعن الطيروهي غوافل
ودع ضرب النحل الذي بكرت له
فما احزته كي يكون لغيره
مسحت يدي من كل هذا فليتنسي

ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح
لاطفالها دون الغواني الصرائح
بما وضعت فالظلم شر القبائح
كواسب من ازهار نبت فوائح
ولا جمعته للندي والمنائح
ابته لشأني قبل شيب المسائح (٤)

(١) امراء الشعر ١٢٢

(٢) اللزوميات ١٥ / ١

(٣) اللزوميات ٣٦١ / ١

(٤) اللزوميات ٢١٨ / ١

هذه هي العدالة في منطقة « فاذا تزهد ابوالعلاء ، وعزف عن الدنيا ، فانما لينفرد بنفسه ، يفكر ويتدبر ، ويقلب النظر في الوجود ومشكلاته ، ويرسم طريق النجاة . فهو في زهد ايجابى بناء ، في حين ان ابا العتاهية سلبى يثبط العزائم ، ويخور الهم . اين الفلسفة حين يبصر الناس بشور الدنيا ويحثهم على اعتزالها ؟ »

الم نريا دنيا تصرف حالك	وغيرك يا دنيا بنا وانتقالك
قلمت بدار يستتم بك الرضا	ولو كنت في كفا امرى بكما لك
حرامك يا دنيا يعود الى الفنا	وذو اللب فينا مشفق من حلالك (١)

او حين يذكرهم بالموت فيدعوهم الى الاعراض عن الدنيا ورفضها ؟ »

الا نحن في دار قليل بقاءها	سريع تداعيا وشيك فناؤها
نزود من الدنيا التقى والنهى فقد	تنكرت الدنيا وحان ^{بذمها} تقاضؤها
غدا تخرب الدنيا ويذهب اهلها	جميعا وتطوى ارضها وسماؤها
ترقى من الدنيا الى اى غايمة	سموت اليها فالمنيا وراءها (٢)

فزهد من هذه الناحية تشخيص جزئي ، وليس تشخيصا كاملا ، للمرض . اما العلاج فلا يصفه لك . يقول لك ان الناس غافلون ، جشعون ، مخادعون ، ولكنه لا يشير لاصلاحهم بغير الوعظ المعاد . وعيوب مجتمعه التي يندد بها لا تصور مجتمعه بالذات ، ولكنها تنطبق على اى مجتمع فاسد - غدر ومكروريا - وفقدان وقاء ، وتطاحن على حطام الدنيا . و اى مجتمع بشورى لا يتعاقب عليه الغدر والمكروريا ، ولا يتنافس فيه الناس على الحطام ؟ انقول ان مجتمعه ليس مجتمعا معيننا بالذات ،

(١) الديوان ١٨٨ - ١٨٩

(٢) الديوان ١٠٤

ولكنه الحياة كلها ؟ انقول ان نقائص هذا المجتمع انما هي نقائص الحياة باكملها ؟
ومع ذلك فماذا رأى في هذه الحياة من نقائص الا الفناء والزوال والاماني الباطلة ؟
وماذا ارتأى من علاج لذلك ؟ عملا صالحا في عزلة عن الدنيا ، وتأهباً
للقاء الله بالتقوى ، اى الموت . وهكذا جاء زهد ضحلا ، فاقع اللون ، محدودة
معانيه وعادية مكررة . وهو الى الموعظة اقرب منه الى الحكمة والتأمل . ثم انه
لم يأت بجديد في هذا الزهد ، فإى زاهد عادى كان حريا ان يجد ما وجد ابو العتاهية
من ختل الدنيا ومكرها ، وفناء البشر ، وضياع المنى . اما الجديد ، فالالفاظ تصوغ
المعاني الواحدة بقوالب شتى ، والبحور المختلفة تنتظم الفكر الواحدة . فقد تغنيك
قصيدة واحدة عن ديوانه كله " ولكن ابا العتاهية اتى في هذا الباب بما لم يسبق
اليه ، وزاد في معانيه زيادة بشار وابي نواس في ادب اللهو والمجون . واضح تعبير
في ذلك ان نقول انه قلعب الزهد ، وملا الادب العربي - في عصره - بالموت
والتخويف منه وما بعده ، واحتقار اللذة والجد في الهرب منها وشعر لجمهور الناس
لا للخاصة وقد كان لشعره صبغة دينية علمية فلسفية (١) . وكان
شعره فيه ذلك الشعر السهل الجميل الذى وصفه المبرّد اوجز وصف واجمله وابلغه
حين قال " كان يخرج القول منه كمنخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا " (٢) . ولن نستطرد
في تقويم هذا الزهد الآن ، وفي الحكم عليه ، فان ذلك محله الفصل القادم .

(١) ضحى الاسلام ١٩٤/١ - ١٩٥

(٢) راجع ضحى الاسلام ١٩٥/١

= الفصل الرابع =

= : =

ختم القول في زهد ابي العتاهية

قلنا في فصل سابق ان الباحثين ، قدامى ومحدثين ، مجمعون على ان ابا العتاهية

قد ختم حياته بالزهد . ولكنهم في تأويل هذا الزهد طائفتان : طائفة المصدقين ، وطائفة المكذابين . فالقضية اذن عبارة عن هجوم ودفاع . ولا يصح حكم قبل ان نقف على حجج كل فريق وبراهينه . فلنستمع الى بعض روايات الفريقين .

من ذلك رواية يرويها صاحب " الاغانى " بسند عن الحسن بن محمد عن هارون

بن مخارق عن مخارق المغنسي ، قال : " جاءني ابو العتاهية فقال : قد عزمتم

على ان اتزود منك يوما تهبه لي ، فمتى تنشط ؟ نقلت متى شئت ، فقال : اخاف

ان تقطع بي ، نقلت : والله لا فعلت ، وان طلبني الخليفة ، فقال يكون ذلك في

غد ، نقلت : افعل . فلما كان من غد باكرني رسوله فجئته فادخلني بيتا له

نظيفا ، فيه فرش نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خبز سميد وجاؤنا بفاكهة وريحان

والوان من الانبذة ، فقال : اختر ما يصلح لك منها ، فاخترت وشربت وصب قدحا

ثم قال : غنني في قلبي فغنيته فشرب قدحا وهو يبكي احربكاً وما

زال يقترح علي كل صوت غنني به في شعره فاغنيه ، ويشرب ويبكي حتى صار

العمسة ، فقال : احب ان تصبر حتى ترى ما اصنع فجلست ، فامر ابنه وغلماه فكسرا

كل ما بين ايدينا من النبيذ وآلته والملاهي ، ثم امر باخراج كل ما في بيته من النبيذ وآلته ، فاخرج جميعه ، فما زال يكسره ويصب النبيذ وهو يبكي حتى لم يبق من ذلك شي ، ثم نزع ثيابه واغتسل ثم لبس ثيابا بيضا من صوف ، ثم عانقني وبكى ثم قال : السلام عليك يا حبيبي وفرحي من الناس كلهم سلام الفراق الذي لا لقاء بعده ، وجعل يبكي وقال : هذا آخر عهدى بك في حال تعاشر اهل الدنيا . . . " (١)

واننا نستطيع على الرغم من الصنعة والرومانطيقية الباديتين في هذه الرواية ، وعلى الرغم من السذاجة البالغة ان نستنتج امورا قد تلقي بعض الضوء على هذه القضية الشائكة . من ذلك ان الرجل كان مقبلا على الدنيا ولمذاتها ايما اقبال ، وهذا مما اخذه عليه المشككون في زهد . ومن ذلك ان في تعليل زهده غموضا لم يجل . ولا نستبعد ان تكون الرواية كلها من نسج راوية فسيح الخيال . وهذه رواية اخرى فسي " تاريخ بغداد " تتميز بالوضوح ، وتشرك الاولى في سذاجتها " . . . قلت لابي العتاهية ما الذي صرفك عن قول الغزل الى قول الزهد ؟ قال : اذا والله اخبرك اني لما قلت :

اهدت لي الصد والملاهي
فكان هجرانها مكاتسي
احد وثة في جميع جاراتي

الله بيني وبين مولاتي
منحتها مهجتي وخالتي
هيمني حبها وصيرني

رايت في المنام في تلك الليلة كأن آتيا اتاني فقال : ما اصبحت احدا تدخله بينك وبين عتبة يحكم لك عليها بالمعصية الا الله تعالى ؟ فانتبهت مذعورا ، وتبت الى الله تعالى من ساعتني من قول الغزل " (٢)

(١) الاغانسي ١٠٧/٤ - ١٠٨

(٢) تاريخ بغداد ٢٥٨/٦

لننح وهن الرواية وضعفها جانبا ، ولنقبل مثل هذا التعليل السطحي .
 بيد ان ابا العتاهية لم يتبع قول الغزل . ألم يحبس الرشيذ ويضربه لما ابى
 ان يقول غزلا ، فاذعن ؟ (١) ، ثم ان الامتناع عن قول الغزل غير التزهّد . ومع
 ذلك فان " نكلسون " يقول في هذا الصدد - ما فحواه - " ان حبس ابى
 العتاهية لما ابى ان يقول غزلا ، ما هو الا - كما رجح " غولد زيهـر " - تأويل
 شعبي قريب لاصراره على قرض الشعر الديني الذي كان يعد خطرا من حيث اتجاهه
 الى التفكير الحر " (٢) .

ومهما يكن من امر ، فالذي تعلنه مثل هذه الروايات - وهي متشابهة فسي
 فحواها وفي سداجتها وافتقارها الى التحليل والاستقراء ، ان الرجل كان على شبيء
 من التزهّد . نتبين هذا ايضا في ثنايا نصوص مختلفة . من ذلك نص ورد فسي
 " الاغاني " قال محمد بن امية : " كنت جالما بين يدي ابراهيم بن المهدي ،
 فدخل اليه ابو العتاهية وقد تنسك ولبس الصوف وترك قول الشعر الا في الزهّد . . . (٣)
 وفي " مروج الذهب " انه تنسك ولبس الصوف على اثر فضله في حب عبدة (٤) .

اما الحجة الاساسية التي يحتج بها المتشككون في زهده ، فتعبر عنها هذه
 الرواية تعبيراً حسناً : " انشد المأمون بيت ابى العتاهية يخاطب سلما الخاسر ؛
 تعالى الله يا سلم بن عمرو
 اذل الحرص اغناق الرجال

(١) الاغاني ٤ / ٢٩٦ ، ٦٣ ، ٦٨

(٢)

Nicholson , A Literary History of the Arabs, 298

(٣) الاغاني ١٢ / ١٤٥ ، راجع ايضا الاغاني ٤ / ٢٩٦ ، ٦٣ ، ٦٨

(٤) مروج الذهب ٦ / ٣٢٣ - ٣٢٦

فقال المأمون : ان الحرص لمفسد للدين والمرءة . والله ما عرفت من رجل قط
حرما ولا شرها فرأيت فيه مصطنعا . فبلغ ذلك سلما فقال : ويلسي على المخنث
الجزار الزنديقي ، جمع الاموال وكنزها وعبأ البدور في بيته ثم تزهد مراعاة ونفاقا
فاخذ يهتف بي اذا تصديت للطلب" (١) ورد عليه سلم بهذه الابيات :

ما اقبح التزهيد من واعظ	يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقا	اضحى وامسى بيته المسجد
ويرفض الدنيا ولم يقنها	ولم يكن يسعى ويستترفد
يخاف ان تنفد ارزاقه	والرزق عند الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من تـرى	يناله الابيض والاسود
كل يوفى رزقه كاملا	من كف عن جهد ومن يجهد (٢)

فالذي يلوح ان ابا العتاهية كان رجلا حريصا على الدنيا ، مقبلا عليها . أليس
هذا ما توحى به رواية المسعودي من ان تمسكه كان نتيجة اخفاقه في الوصول الى
عتبة ؟ " وفدا عليه (على الرشيد) ابو العتاهية وهو لا يشرك في
الظفر بها . فقال له الرشيد : والله ما قصرت في امرك . ومسرو ، وحسيـن ،
ورشيد ، وغيرهم شهود لي بذلك . وشرح له الامر . قال ابو العتاهية : فلما اخبرني بذلك
مكثت مليا لا ادري اين انا ثم قلت له : الآن يثبت منها ان ردتك ، وعلمت انها
لا تجيب احدا بعدك . فلبس ابو العتاهية الصوف وقال في ذلك من ابيات :

(١) الاغانى ٧٥ / ٤
(٢) واضح ان البيت يكسر هكذا . والصواب (ورفض) كما في سائر النسخ .
(٣) وفيات الاعيان ٩٧ / ٢ . راجع كذلك معجم الادباء ٢٣٩ / ١١ . وقد وردت بعض
هذه الابيات في " الاغانى " منسوبة الى الجواز ابن اخت سلم الخاسر هذا (٧٦ / ٤)

فقال المأمون : ان الحرص لمفسد للدين والمرءة . والله ما عرفت من رجل قط
حرما ولا شرها فرأيت فيه مصطنعا . فبلغ ذلك سلما فقال : ويلسي على المخنث
الجزار الزنديقي ، جمع الاموال وكنزها وعبأ البدور في بيته ثم تزهد مراعاة ونفاقا
فاخذ يهتف بي اذا تصديت للطلب^(١) ورد عليه سلم بهذه الابيات :

ما اقبح التزهيد من واعظ	يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقا	اضحى وامسى بيته المسجد
ويرفض الدنيا ولم يقنها	ولم يكن يسعى ويسترفد
يخاف ان تنفد ارزاقه	والرزق عند الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من تهرى	يناله الابيض والاسود
كل يوفى رزقه كما لا	من كف عن جهد ومن يجهد (٢)

فالذي يلوح ان ابا العتاهية كان رجلا حرما على الدنيا ، مقبلا عليها . اليس
هذا ما توحى به رواية المسعودي من ان تمسكه كان نتيجة اخفاقه في الوصول الى
عتبة ؟ ... وقد ا عليه (على الرشيد) ابو العتاهية وهو لا يشك في
الظفر بها . فقال له الرشيد : والله ما قصرت في امرك . وسرور ، وحسيان ،
ورشيد ، وغيرهم شهود لي بذلك . وشرح له الامر . قال ابو العتاهية : فلما اخبرني بذلك
مكنت مليا لا ادري اين انا ثم قلت له : الآن يئست منها اذ ردتك ، وعلمت انها
لا تجيب احدا بعدك . فلبس ابو العتاهية الصوف وقال في ذلك من ابيات :

(١) الاغانى ٧٥ / ٤

(٢) واضح ان البيت يكسر هكذا . والصواب (ورفض) كما في سائر النسخ .
(٣) وفيات الاعيان ٩٧ / ٢ . راجع كذلك معجم الادباء ٢٣٩ / ١١ . وقد وردت بعض
هذه الابيات في " الاغانى " منسوبة الى الجواز بن اخت سلم الخاسر هذا (٧٦ / ٤)

وحططت عن ظهر المطي رحالي
فغنيت عن حل وعن ترحــــــــــــــــال" (١)

قطعت منك حبائل الآمال
ووجدت برد اليأس بين جوانحي

وهكذا نرى ان الذين كذبوا زهدهم بنوا حكمهم على تاريخه الحافل باللهم والحرص على الدنيا . ولكن ليس بين روايات الفريقين رواية يصح ان يقوم عليها الحكم في هذه القضية ، سوى اشارات عارضة تطعن في زهدهم لحرصه او لتمسكه بالدنيا . قال

فيه ابراهيم بن المهدي :

والموت لا يسهو وقلبك ما هي
عن عينه قبل الممات تناهــــــــي
دبها وانت عن القيامة لاهي
والدار دار تفاخر وتباهــــــــي
تتحامقن لها فانك لاهــــــــي
تحتاج منك لها الى اشباه (٢)

ان المنية امهلتك عتاهــــــــي
يا ويح ذى السن الضعيف اما له
وكلت بالدنيا تكيها وتـــــــــ
والعيش حلوا والمنون مريــــــــرة
فاختر لنفسك دنها سبــــــــلا ولا
اني رأيتك مظهرا لزهادــــــــة

وقصارى ما نجمله من مثل هذه الاشارات والروايات التي تطعن في زهدهم ، ان قوام هذا الطعن ما عرف عن الرجل من حب للحياة وميل الى الاستمتاع بها . ولكن كلا الجانبين ، جانب "الدفاع" وجانب "الهجوم" لم يستفرغا الجهد في اقامة البينة . فهذه الروايات جميعا باستثناء التي ترد زهدهم الى نكبته في غرامه ، لا تذكر سببا واضحا لتحويله الى حياة الزهد . وخلصتها انها - بما فيها التي تطعن في هذا الزهد - تعترف ضمنا بانه ختم حياته على نحو من التزهد ، وان يكن هذا التزهد في نظرها رثاء ومخادعة .

(١) مروج الذهب ٢٣٥/٦ - ٢٣٦

(٢) الاغانى ١٠١/٤ - ١٠٢

فلننح جانباً هذه الروايات التي لن تكون لنا ذات غناء كبير ، ولننتلمس الامور في اصولها - في ابي العتاهية نفسه ، في عصره وشخصيته ومزاجه . ولن نعرض الى كل هذه المواضيع التي توسعنا في بسط بعضها في فصول قائمة سابقة ، الا بالقدر الذي يستلزمه منا سياق البحث .

اما عصره ، فنحن نعلم انه لم يفر بالتزهد فحسب ، ولكنه كان من احفل العصور الاسلامية بالزهاد . ففي الوقت الذي كان فيه ابو نواس وشار وسواهما من زمرة المجان يعيشون في المجتمع العباسي فساداً وفسقاً ، كان امثال ابراهيم بن ادلم ، وشقيق البلخي ، ورابعة العدوية ، والفضيل بن عياض ، وغيرهم من الزهاد يملؤونه صلاحاً وورعاً . وهكذا انبثق ضوء الردة الروحية من خلال دياجير المجون الحالكة . فليس بالبدع ان يكون العصر من العوامل التي اسهمت في تكوين نزعة شاعرنا الزهدية . وقد لا يكون زهده ثورة خالصة على الفساد الخلقي ، او السياسي ، ولكنه من العوامل التي اهابت به لان يقف ذلك الموقف اليأس من الحياة . وعصره - في هذه الناحية - قد بلور هذا الموقف وجلى هذا اليأس ، وشجعه على التصدي للمجتمع في شعر زاهد متشائم . فما لا شك فيه ان في مزاج الرجل استعداداً طبيعياً للتشائم والقنوط ، وان فيه خوفاً واضطراباً . وآية ذلك ، هذا الشعر الكثير الذي فرضه في تصوير احوال الموت ورهيبته . فالواقع ان الموت لم يعد له - في ما عبر عنه - مجرد حقيقة قاسية يتعظ بها ويعظ ، بل غداً وسواساً ينخر في عظامه وشبحاً يطارده اينما حل وانى اتجه ، فلا يفتأ يرهب الناس به ويخيفهم ليحسمانه في حيرته وجزعه غير وحيده ، وليتسلى بخوفهم عن خوفه ، وليستأنس بمصائبهم . وان اية قصيدة

له في الموت لتتطرق بهذه الحال النفسية المضطربة :

أأغفل والمنايا مقبلات
ولو اني عقلت لطلال حزني
واظلمات النهار لحزن قلبي
علي ، واشترى الدنيا بديني
ورمت اخاه كل اخ حزينا
وت الليل مفترشا جبينا (١)

اصغ اليه يقول :

ارى الموت لي حيث اعتمدت كميننا
سيلحقني حادى المنايا بمن مضى
يقين الفتى بالموت شك ، وشك
علينا عيون للمنون خفيصة
واصبحت مهموما هناك حزينا
اخذت شمالا او اخذت يمينا
يقين ، ولكن لا يراه يقينا
تدب ديبيا بالمنية فينا (٢)

اي ان ابا العتاهية مصاب - بلغة علم النفس - بـ "هستيريا الموت" والذعر منه .

فلا غرو اذا استمد من هذه الحال النفسية الشاذة مددا يحارب به هذه الحياة التي لم
تحمل اليه الا الرعب والخوف . يضاف الى ذلك ما كان يرافقه من احساس دائم بمركب
النقص او الشعور بالضعة . ولقد رأينا انه عمد الى الدعوة الى التقى والزهد يعتاض
بهما عن ضعة منشئه حين قال :

دعني من ذكواب وجد
ما الفخر الا نسي التقى والزهد
ونسب يعليدك سور المجدد
وطاعة تعطي جنان الخلد (٣)

او حين زعم انه جلس يحجم تواضعا للاجر . ونحن نعلم انه نشأ في اسرة كان منها
الحجاج والجرار ، فلن نستغرب اذا وجدناه يسخر اذ به الطييع ليسرف في تمجيد التقى
والقناعة ، وليقطع دابر المتقولين العائيين عليه الحقامة :

الا انما التقوى هي العز والكريم
وليس على عبد تقى نقيصة
وحبك للدنيا هو الذل والعدم
اذا صحح التقوى وان حاك او حجم (٤)

(١) الديوان ٢٦٦

(٢) الديوان ٢٦٨

(٣) الديوان ٦٩

(٤) الديوان ٢٤٣

فمجل حاله النفسية ومزاجه وعصره ، جميع ذلك يغيره بالزهد • ولكن لماذا شك
معاصروه وغير معاصريه في صدق هذا الزهد ؟ قصارى ما حملته اليأس مطالعاتنا
في هذا الشأن ان شكهم قوامه :

- ماضيه الماجن

- الطعن في عقيدته

- اقباله على الحياة ونفوره من الموت

- بخله

اما ماضيه ، فالروايات مجمعة على انه كان ماجنا ، وان ابا العتاهية كان مختئا ،
فاسدا • (١) فاذا ما عدل عن الخمر واللغو الى النسك والصلاح ، فذلك في ظن زملائه
في الفتك والعبث رياء • وبعبارة اخرى ، فانه امر بعيد الاحتمال ، عسير التصديق •
فاذا عجب له نفر منهم ، وابتوا تصديقه لغرابته ، فليصموه بالزور والبهتان •

اما الطعن في عقيدته ، فقد كان بداع من الزعم بانه كان مذبذبا^(٢) في دينه ، وانه
مولى اتهم بالزندقة^(٣) • ولكن هذا الطعن لم يصح لان قضية عقيدته كلها لم يفصل
فيها بعد ، ولا يزال الباحثون في خلاف من امرها • اذ الى هذا ان تهمة الزندقة
هذه لم تثبت • وفي " الاغانى " ان حمدويه صاحب الزنادقة ، بات طيلة احدى الليالى
يرقبه فلما أعجزه ان يجد عليه مأخذا يئس منه وانصرف خاسئا^(٤) •

(١) الاغانى ١ / ٤

(٢) راجع الاغانى ٦ / ٤

(٣) راجع الاغانى ٣٤ / ٤ ، ٣٥

(٤) الاغانى ٣٥ / ٤

واما اقباله على الحياة ونفوره من الموت ، ففي حاجة الى بعض التفصيل : لا ريب في ان
 ابا العتاهية قد احب الدنيا واقبل عليها مدنا كلفا . ولا ريب في ان الدنيا لم تواته .
 وهذا الاحساس بالحرمان من الدنيا ولد في نفسه النعمة عليها . فاذا كان في زهدياته
 ابيات توحى بالتمسك بالدنيا والنفرة من الموت والبكاء على الشباب ، فهذا في اعتقادنا
 من قبيل التنديد بشدة يأسه من الحياة ، وطول تمرسه باحوالها . فاذا بكى شبابه
 فليس معنى ذلك انه تمسك بالدنيا بقدر ما هو تصوير للمرارة التي خلفتها الحياة في
 اعماقه . خذ مثلا قوله :

يا عجب الدنيا لعين تعجبت	ويا زهرة الايام كيف تقلبت
تقلبني الايام بدءا وعبودة	تصعدت الايام لسي وتصوبت
وعاتبني ايامي على ما يروعني	فلم ار ايامي من الروع اعبت
سانعي الى الناس الشباب الذي مضى	تخرمت الدنيا الشباب وشيبت (١)

تَرَ انه لا يرثي شبابه ولا يأس على ما فات من عمره ، ولكنه يجعل من هذا التأسى
 على الدنيا والشباب مظهرا من مظاهر الغناء الذي يرهب به الناس ويتوسل به الى الزهد .
 اسمعه يقول :

انما تنفي الحياة المنايا	مثلما ينفي المشيب الشبابا (٢)
توقن بانه لا يأس على شبابه بقدر ما يأسى على ما ضاع من عمره سدى ، وهو في غفلة عن	
حقيقة الحياة . وصحيح ان في الابيات الآتية ما يوحي بانه عشق دنياه يوما :	

يا عاشق الدار التسي	ليست له بمواتيه
احببت دارا لسم تنزل	عن نفسها لك ناهيه
اترى شبابك عائدا	من بعد شيبك ثانيه (٣)

(١) الديوان ٥١

(٢) الديوان ٢٩

(٣) الديوان ٣٠٣

ولكنه لا يسترسل في هذا العشق ، وانما يتعظ بتجارسه السابقة القاسية ، ويجعل
 من سحر الدنيا واجتذابها للناس واغترارهم بها سلاحا يتلح به في الدعوة التي
 اعتزلها . ثم ان الزهد ليس حتما ان يقتل كل صبوة ، ويكس كل نزوة او يبيت كل احساس
 بالوجود . والزاهد الحق ليس الرجل الذي يكذب نفسه ويدعي ان الدنيا من المباح
 واللذائذ خلاء ، ولكن الزاهد الحق من اقر بسحر الدنيا وسلطانها فاعرض عنها على
 عمد ، وقسا على نفسه على كره منها ورغبة الى الاستمتاع بها . واي زاهد ذلك الزاهد
 الذي لا يعد الطعام الشهوي مثالا ، متعة وبهجة فيفتري على الطبيعة الكذب ؟
 واي فضل له اذا امتنع عن شيء ينفر منه اصلا . فابو العتاهية حين يقول في معرض زهدياته :

لعمري ان الحياة حلوة
 وللموت كأس يا لها ما امرها (١)

ار :

اجن بزهرة الدنيا جنونا
 وافنسي العمر فيها بالتمني (٢)

فليس ذلك اعتصاما بالحياة ، ولكنه تذكير بغرورها وانخداعها بها ، واذا قال :

الشيب احدي الميتين تقدمت
 احداهما وتأخرت احداهما (٣)

فانه لا يبكي لفرقة الشباب ولا يحزن لرؤية الشيب ، ولكنه يتعظ بزوال الاول واقبال الثاني :

الليل شيب والنهار كلاهما
 يتناهبان لحومنا ودمائنا
 رأسي بكرة ما تدور رحاهما
 ونفوسنا جهرا ونحن نراهما (٤)

فذلك وصف لقسوة الحياة وعثوها لا بكاء عليها . واذا رأى الموت عاما في الناس فهتف :

الا يا موت لم ار منك بددا
 كأنك قد هجمت على مشيبي
 اتيت وما تحيف وما تحابسي
 كما هجم المشيب على شبابي (٥)

(٤) الديوان ٢٥١

(٥) الديوان ٢٣

(١) الديوان ١٢٥

(٢) الديوان ٢٦٣

(٣) الديوان ٢٥١

فليس ذلك جزءا من الشيب ولكنه تعبير صادق عن قسوة الموت وجبروته . وهذا الخوف من الموت قد ينتهي من زهد ، ولكنه لا يطعم فيه . فقد يخشى احدنا المرض فيعيش في قلق وحيرة ، وهو معاني دون ان تتأثر بنيتة بهذا الخوف . واذا وجد ان الناس قد انفضوا من حوله ، وقد ولت عنه الحياة بجمالها وقوتها ومغرياتها فانشد :

لله عقلي ما يزال يخونني	ولقد اراه وانه لمصيب
لله ايام نعمت بليتها	ايام لسي غصن الشباب رطيب
ان الشباب لنافق عند السورى	ما للمشيب مخادن وحبيب (١)

فادرك ان في ذلك استفحالا لنزعة الزهدية . فانه يستعيد بهذه الابيات العناصر المختلفة التي اغرتة بالزهد : لقد قلب النظر في دنياه ، وقد قضى فيها آثر سني حياته على نفسه وأحفلها بالخصب والنضرة ، سني الشباب ، فوجد ان الذين كانوا يسعون اليه انما كانوا يسعون الى شبابيه وما يستتبع هذا الشباب من قوة ويسر ، ثم وجدهم وقد ولى عنه هذا الشباب ، قد انفضوا من حوله وتركوه قائل وحيدا . فلم لا يجعل من اساءه على تلك السنين التي خدع فيها اسي على الشباب الذي كشف له زواله عن حقيقة الحياة المرة ، وقد كانت عنه مستورة بخيوط واهنة زاهية ؟ ومع هذا فنحن لا نزع ان ابا العتاهية كان في حياته الزاهدة منقطعا عن الدنيا كل الانقطاع . وسرى فيما بعد ان مسلكه في حياته كان غير مسلكه في شعره .

واما بخله ، فهو من مظاهر حرصه على الدنيا . ولقد تواترت الانباء في ذلك كثيرا . والراجح ، بناء على هذه الروايات ، ان الرجل كان بخيلا . ولكن هل يضاد البخل الزهد وينفيه ؟ لتساءل اولا لم كان أبو العتاهية بخيلا ؟ نحن نعلم انه نشأ نشأة خاملة معدمة ، وانه لم يزل يتحسس مواضع النقص فيه من ضعة نسب ، ووضاعة اصل ، وعوز .

فإذا ما اقبلت عليه الدنيا ، واشتد حرصه عليها ، فخلانه مد فروع بعاملتي الخوف والنقص ،
 الخوف من الايام البائسة الشديدة التي كابده فيها الحرمان ، والنقص لكل تلك المعاني التي
 افتقدها في مطلع حياته . فلا غرو اذا كثر ماله وتغاني في الحرص عليه . وما لنا نؤمّل
 في الاستقصاء ، وقد ونا المثل الذي شاهده كل يوم - الطفل المشوق الى الحلواء ، وقد
 حرّمته امه من القدر الذي يشبع نهمه منها ، لا تكاد تمنح له السانحة يجد في يده
 منها شيئاً ، حتى يستحيل شرساً عنيفاً ، لو تجمع اهل الارض جميعاً على ان يستنقذوا منه
 شيئاً منها ما وجدوا الى ذلك سبيلاً .

وقد يكون البخل مفسدة للزهد . ولكن من قال ان ابا العتاهية كان زاهداً
 كهؤلاء الزهاد المنقطعين في صوامعهم الى الله وحده ؟ لا مريّة في ان المصادر عن
 النهج الذي انتهجه في حياته ، في طور الزهد ، تكاد تكون معدومة . ولا محيص
 لنا من ان نعتمد شعره الزهدي الذي استخرجنا منه في الفصل السابق مجمل آرائه الزهدية .
 فماذا يعكس هذا الشعر ؟ انه لا يعكس اي نسق لحياة زهدية . ولقد رأينا ، ونحن نجول
 فيه ، خلواً من اية فلسفة . واين الفلسفة في قوله يصف الايام وتقلبها :

دارت نجوم السماء فسي الفلك
 قد انقضى ملكه الى ملك (١)

ما اختلف الليل والنهار ولا
 الا لنقل السلطان عن ملك

او في زوال الدنيا :

ودع الركون الى الحياة فتنتفع
 لم تذهب الايام حتى تنقطع
 حتى تشتت كل امر مجتمّع
 لو قد اتاك رسوله لم تمتنع (٢)

اياك اعني يا ابن آدم فاستمع
 لو كان عمرك الفحول كامل
 ان المنية لا تزال ملحّة
 فاجعل لنفسك عدة للقاء من

(١) الديوان ١٩٠

(٢) الديوان ١٤٨

أوفي وعظ الناس بالموت :

هو الموت فأصنع كلما أنت صانع
 إلا أيها المرء المخادع نفسه
 وبها جامع الدنيا لغير بلاغفه
 وكم قد رأينا الجامعين قد أصبحت
 لو أن ذوى الأبصار يرون كلما
 فما يعرف العطشان من طال ريسه
 وانت لكأس الموت لا بد جارح
 رويدا أتدرى من أراك تخادع
 ستتركها فانظر لمن أنت جامع
 لهم بين أطباق التراب مضاجع
 يرون لما جئت لعين مدا—
 فما يعرف الشبعان من هو جائع (١)

فهو زهد لا يعكس حياة زاهد ، ولكنه يعكس بالتأكيد نزعة زهدية واضحة . فهل تطورت هذه النزعة في ذهن ابي العتاهية حتى غدت منهجا ؟ اغلب الظن انها لم تتحول هذا التحول الكبير . اذن فكيف كان زهده ؟ لم يكن زهدا كزهد النساك المنقطعين الى الوحدة والعبادة ، ولكنه كان زهدا فنيا ، اى طريقة مستحدثة للتعبير عن المعاني الزهدية التي تجول في نفسه وفي خاطره . فابو العتاهية اذن زاهد فني اكرما هو زاهد صوفي . ولكن نزعة الزهد الاصيله كامنة في قلبه . واذ كان التعلق بالدنيا يعيب زهد الزهاد المعروفين ، فانه لا يقسه منحى كمنحى ابي العتاهية الزهدى .

• وصحيح ان شعره لا يعكس كرها للدنيا ، بيد ان تمسكه بها كتمسك اى انسان •
 وصحيح انه كان ماجنا فاحشا في اول امره ، ولكن انصرافه الى الجد في آخر ايامه صحيح
 كذلك . ومثل هذا التحول لا يتم بدون ميل الى رصانة الحياة ، واستخفاف ببها رجاها •
 ولا بد من طبيعة تدفع الى ذلك فقد تكون حجت في اول عمره بدافع الصبا ، ثم ما لبثت حين

شبه ونضج ان بانث وتبلورت . ولا ننسى ان ابا العتاهية شاعر ، فاذا تحول نظره عن زخرف الدنيا الى حقائق الحياة والموت ، واذا اعرض عن اللهو الى التعفف والتأمل ، وعن العبث الى الرزانة والهدوء ، فليس ذلك بدعا ولا عجبا . حتى ان الروايات التي طعنتم في زهده ، وكذبت له لم تعرض الى شعره في الزهد ، وكأنها تقول ان زهده كان فنا اكرما كان مسلكا (١) . فلو تحولت عن نهج زملائه الشعراء المجان في اقبالهم على الحياة ، ولكنه لم يتحول عن الحياة كلها . والذين عدوا زهده زائفا محقون من هذه الوجهة ، ولكنهم لم ينصفوه حين انكروا عليه نفوره من التهالك على الدنيا ، او احساسه بتفاهة الحياة وخوفه من الموت ، ولعله كان اولي واقم لو قالوا ان تحوله الى التنفير من الحياة والدعوة الى اعتزالها ، ما هو عن اقتدار منه ويسر ، ولكن عن عجز وهلع . فاذا وجد في ~~الشيخ~~ بهذا الخوف انما اكتفى بهذا القدر من الزهد الذي نزم انه زهد فكري فني . ومن تحصيل الحاصل ان نقول ان في طبيعته استعدادا الى هذا التفكير المتشائم اليائس الزاهد ، الذي تضافرت عوامل شتى على امداده وتغذيته حتى اتضح قويا في زهدياته . ثم ان قوام نفسية ابي العتاهية الخوف ، خَافَ الْمَوْتَ ثَرْنًا إِلَى الْآخِرَةِ ، وَخَافَ الزَّوَالَ فُكْرَهُ الدُّنْيَا ، وَخَافَ الْحَيَاةَ كُلَّهَا فَلَجَأَ إِلَى الزَّهْدِ وَالِدَعْوَةِ إِلَى اعْتِزَالِ الدُّنْيَا . ففي ذلك له عوض من وجوه عدة : فيه عوض عن ماضيه الشائن ضعة ومجونا . وفي هذا الزهد اطراح لكل المفارخ والامجاد التي

حرمها :

ونسب يعلي بك سور المجد
وطاعة تعطي جنان الخلد (٢)

دعني من ذكر اب وجهد
ما الفخر الا في التقى والزهد

(١) في "الموشح" إشارة الى تفاهة زهدياته " . . . العباس بن الاحنف في الغزل مثل ابي العتاهية في الزهد يكثران الحز ولا يصيبان المفصل " (٢٩١) .

وفيه عوض بالتنفيس عن نزعة فنية يحتبسها . فقد حدث ابن ابي الابطح قال :
 " اتيت ابا العتاهية فقلت له : اني اقول الشعر في الزهد ، ولي فيه اشعار كثيرة ،
 وهو مذهب استحسنته لاني ارجو ان لا آثم فيه ، وسمعت شعرك في هذا المعنى
 فاحببت ان استزيد منه ، واحب ان تشدني من جيد ما قلت ، فقال : اعلم ان ما قلته
 ردي ، قلت ، وكيف ؟ قال : لان الشعر ينبغي ان يكون مثل اشعار الفحول
 المتقدمين ، او مثل شعر بشار وابن هرمة ، فان لم يكن كذلك فالصوات لقائله
 ان تكون الفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيما الاشعار التي
 في الزهد . فان الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب
 الغريب . وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد واصحاب الحديث والفقهاء واصحاب الرياء
 والعامّة ، وأعجب الاشياء اليهم ما فهموه . فقلت : صدقت . . . " (١) .

ومهما يكن من امر فقد كان في نفسه هوى للزهد ، قولا ان لم يكن فعلا .
 فكان في زهده شاعرا ولم يكن ناسكا . لم يكن ينتمي الى طائفة الزهاد المتصوفين
 الطاكفين على العبادة . فاذا كان في شعره مراثيا " فهو ورياءه واشعاره من مظاهر
 التصوف ، لان التخليق باخلاق الزهاد لا يكون الا ان صح لهم اسم وصيت ، ولا جدال
 في ان الزهاد كان لهم سلطان في ذلك العهد ، وكان يسرا ابا العتاهية ان يقف من الخلق
 ذلك الموقف المشرف الذي كان يقفه عمرو ابن عبيد ، وعبد الله بن المبارك ،

وقد صح له شيء من تلك الاحلام ... (١) . فزهد ابي العتاهية اذ ان كان من لون خاص فريد ، لا تتلمس اصوله في اخفاقه في حبه مثلاً ، فقد رأينا هذا الحب اقرب الى ان يكون صنعة واقتمالا . وانما تستقصى مصادره في نفسية ابي العتاهية ومزاجه . فالواقع ان لدى الرجل نزعة الى التشائم بفطرته ، والزهد مظهر من مظاهر التشائم . فاذا حجب الشباب هذا الاستعداد فترة من الزمن ، فان الكهولة كفيلة بان تكشف عنه وتعلنه ، وتستقصى كذلك في عصره الذي كان فيه تيار الزهد موازياً او معاكساً لتيار الفحش والفسق . فاذا اعرض ابو العتاهية عن حياة اللهو والاولى ، او تخلف عن مجلس زملائه السابقين في العبث ، فانما

(١) التصوف الاسلامي ١٩/١ - عمرو بن عبيد : من فضلاء عصره وزهاده وعلماؤه المشهورين . قيل وصفه الحسن البصري بقوله : " كأن الملائكة أدبته وكأن الانبياء ربتة " . وكان ذا دالة بالغة على ابي جعفر المنصور ، وحظوة كبيرة عنده حتى انه رثاه لما مات . ولد سنة ثمانين للهجرة ، وتوفي سنة مائة واربع واربعين للهجرة . (ومنهم من قال قبل ذلك او بعده بقليل) - راجع وفيات الاعيان ١٣٠/٣ - ١٣٣ .

عبد الله بن المبارك : جمع بين العلم والزهد ، وتفقه على سفیان الثوري ومالك بن انس . وكان ورعاً . قالت ام هارون الرشيد عنه ، لما رأت الناس حوله وقد قدمت ولدها الرقة " هذا والله الملك ، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس الا بشرط واعوان " . ولد سنة مائة وثمانين للهجرة ، وتوفي سنة مائة واحد وثمانين او اثنتين وثمانين للهجرة - راجع وفيات الاعيان ٢٣٧/٢ - ٢٣٩ .

ليخلو بنفسه يتدبر حقائق الحياة ، ويرجع البصر في الكون حوله فيرى حقارة الدنيا وتفاهتها ، ويشاهد أهوال الموت وبطشه ، فيفيض شعره بأسا يحمل على الزهد في الحياة ، لا ليختط لنفسه خطة زاهدة في عيشه . ذلك لا يعني مثلا انه ترك القصر وسكن الكوخ ، وسل عن جسده الديباج وارتمى الصوف ، وانه حرم على نفسه اطيب الطعام واعتاض عنها بما يمسك عليه ريقه . اغلب الظن انه لم يفعل شيئا من هذا القبيل . ولكنه كان في قرارة نفسه مدركا لحقيقة الحياة والموت ، ينبه الناس اليها ، ويعبر عنها بشتى الشكول والصور . وهذا لا يعيب ابا العتاهية الذي لم يدع انه كان زاهدا كهؤلاء الزهاد المعروفين المتخليين من الدنيا . وغاية ما قاله في زهد ياته انه ادرك سخف الحياة وباطلها فاتعظ بها ، وعمل على ان يتحلل من اسرها فقال :

كل شيء منها صغير حقيقير
وعلى ذلك الآله قد يير (١)

قد رأيت الدنيا الى ما تصير
انا في حيلة التخلص منها

لم يقل انه نفخ منها يديه ، ولكنه كان مخلصا مع نفسه ومع الناس ، فاقرب بصراحة انه يجهد نفسه في سبيل الخلاص منها .

فابو العتاهية اذن لم يكن زاهدا بالمعنى المألوف ، المعروف ، ولكنه كان زاهدا من حيث الفن الشعري . ولكن مثل هذا لا يتأتى من غير حافز نفسي والحافز كان في قرارة نفسه - كان احساسا قويا ملحا باليأس من الحياة ، وما اليأس الا بعض الزهد ، بل قل انه الجانب النظري منه . فهل كان ابو العتاهية زاهدا نظريا ؟ الراجح انه كان كذلك اكثر مما كان زاهدا عمليا . ولكننا وان نفينا عنه صفة الزاهد العملي ، فاننا لا نستطيع ان نجرده من نزعة الزهد اصلا ، وان تكن هذه النزعة لم تتجل وتتطور

تطوراً عملياً . وهذا الشعر الزهدى الكثير الذى قاله ، هل يعقل ان يكون كـه
صنعة وتكلفاً لا ينبع عن احساس ، ولو ضئيل ، بما يحمله من معان ؟ لا يعقل
هذا ولا يصح . ففي هذا الشعر نزعة للزهد بارزة . ولننزل الساخطين على ابي
العتاهية والمنكرين عليه صدقه في زهده ، فنقل ان فيه نزعة ظاهرة لليأس من
الحياة وللشأم . وان الذين قالوا ان ابا العتاهية يمثل التيار المضاد لتيار الفساد
في عصره محقون في قولهم على هذا الاساس . فلقد كان النغم الشائع في عصره سخياً
ومجوناً . اما رنة السكينة وهمسة الحشمة ، فلم يتح لهما من ينشدهما ، ولو خافتا ،
من ادباء العصر نشيداً واضح النبرات ، ميزا الالحن ، الا ابو العتاهية . وهنا تكمن
مكانة ابي العتاهية الحق في الزهد " يقول "نكلسون" - ما مؤداه - " ان ابا
العتاهية كان اول ، ولعل آخر برهان ، في تاريخ الادب العربي على تطويع الشعر
للغة العادية البسيطة مع المحافظة على مزايا الشاعرية " (١) .

ولعل في هذا بعض المبالغة . انما المهم ان ابا العتاهية قد نهج لمعاصريه
وللاحقيه نهجا فذاً جديداً ، هو النظم في الزهد والتقوى (٢) فقد اوتى قدرة غريبة
على تطويع اللفظ والمعنى على السواء ، فبسط معاني الزهد ، وقلب النظر فيها ،
وعرضها بقوالب وصور شتى . اى انه " شعر الزهد " . فلا غرو ان تأثر به
اديب كابن عبد ربه . يقول الدكتور جبرائيل جبور : " ولعل ابن عبد ربه قد تأثر
بابي العتاهية في زهده . وقد شابهه بالرجوع عن حياة اللهو الى الزهد ، وان شئت

Nicholson, A Literary History of the Arabs , 299

(١)

(٢) من الادب ١٨٢/١

فقل شابهه بالرجوع عن شعر في اللهو الى شعر في الزهد ، وما اكثر ما يستشهد
 باشعار ابي العتاهية في العقد في مواضيع الزهد . وما اكثر ما يرد فيها بابيات
 له في الموضوع نفسه ، فيذم الدنيا والزمان الذي عاش فيه ، كما كان يذم ابو العتاهية
 دنياه وزمانه ، ويذكر الموت ويدعو الى الالتفات الى الحياة الآخرة كما كان يفعل ابو العتاهية " (١)

لقد كان قبل ابي العتاهية شعر زاهد * ولكن ابا العتاهية جدد في
 ذلك وطور وزاد في معانيه زيادة بشار و ابي نواس في ادب اللهو والمجون " واضح تعبير
 في ذلك ان نقول انه فلسف الزهد وملا الادب العربي - في عصره - بالموت
 والتخويف منه . وما بعده واحتقار اللذة ، والجهد في الهرب منها وشعر لجهنم
 الناس لا للخاصة " . (٢)

بهذا استحق ابو العتاهية فضل ريادة شعر الزهد العربي الذي اكسب عليه ،
 يجدد فيه ويطور ، ويزيد ويبتكر ، كما عكف ابو نواس على شعر اللهو يعمل فيه فنه وادبه .
 واستحقه اذ كان في ريادة هذا العالم ، المجهول تقريبا في الادب العربي ، رائد نزعة
 خلقية وهنت في عصره . كانت النزعة الى اللهو والفسق شائعة مألوفة في ادب العصر
 وبين ادبائه ، ولكن النزعة الى التأمل في الحياة ، والاتعاظ بالموت ، لم تكن ذات شأن

(١) ابن عبد ربه وعقده ١٣٥

(٢) ضحى الاسلام ١٩٤/١ - ١٩٥ .

في ادب هؤلاء الادباء الى ان جاء ابوالعتاهية فتولاها بشعره السهل الممتنع ،
 وعبّر عنها اوضح تعبير ، وايسره ، وابسطه ، فحققت له الريادة من وجهتين -
 معا : الوجهة الخلقية ، والوجهة الفنية . وان شاعرا كأبي العتاهية
 له كل مقومات الشعارية الحق ، وله مثل هذا الفضل في الخلق والفن ، لجدير
 باكثر من هذه الصفحات القصيرة التي أوصل ان تكون قد وفته بعض حقه من التعريف .

= الباب الثالث =

= : =

مختارات من زهديات ابسي العتاهية

لعل من تمام التعريف بابسي العتاهية ، ان نختتم هذا البحث المتواضع - الذي لم يستوعب جميع ما كان ينبغي ان يستوعبه من شأن هذا الشاعر - بشيء من شعره الزهدي ، وقد نسقناه بحيث يلتئم مع فصول الرسالة :

x x x

زوال الدنيا

(١) - السم في السم

كفك بدار الموت دار قننا	لعمرك ما الدنيا بدار بقنا
يرى عاشق الدنيا بجهد بسلا	فلا تعشق الدنيا أخى فانما
وراحتها بمزوجة بعننا	حلاوتها بمزوجة بمسراة
فانك من طمن خلقت ومنا	فلا تصب يوما في ثياب مخيلنة
(١) وقل امرؤ يرضى له بقضنا	لعلك تلقى امرريك شاكرا

(٢) - الدنيا سراب

طالما سحبت خلفي الثيابا	طالما حلا معاشي وطابا
طالما ناهزت صحبي الشرابا	طالما طارعت جهلي ولعبي
فرماني سهمه واصابنا	طالما كنت احب التهابا
اين تبغي هل تريد السحابا	ايها الباني قصورا طولا

(١) الديوان ٢

ان رماك الموت فيه اصابا
ابن ما شئت ستلقى خرابا
بك والايام الا انقلا بـ
انما الدنيا تحاكي المرابا
وكما عاينت فيه الضبـ (١)

انما انت بوادي الضايـ
ايها الباني لهدم الليالي
أأمنت الموت والموت يأبـ
لو ترى الدنيا بعين بهيرة
انما الدنيا كفيء تولـ

(٣) - البيت الحرق

وما لك الا ما وهبت وامضيتـ
اكلت من المال الحلال فانيتـ
امامك لا شيء لغيرك ابقيتـ
كسوت والا ما لبست فابليتـ
وقصرت عما ينبغي وتوانيتـ
سموت الى ما فوقها فتمنيتـ
ستبدل منها عاجلا في الشرى بيتـ (٢)

جمعت من الدنيا وحزت ومنيتـ
وما لك مما يأكل الناس غير ما
وما لك الا كل شيء جعلته
وما لك مما يلبس الناس غير ما
وجمعت ما لا ينبغي لك جمعه
تفنى العنى حتى اذا ما بلغتها
ايا صاحب الابهات قد اتخذت له

(٤) - عظة الفناء

تصرفهن حالا بعد حال
وما لي لا اخاف الموت ما لـ
ولكني اراني لا ابالـ
تفانوا ربما خطرنا ببالـ
ولا ابغى مكاثرة بمـ
اذل الحرص اعناق الرجـ
اليس يصير ذاك الى السـ
وشيكا ما تغيره الليالـ
ولا شيء يدم مع الليالـ (٣)

تعني نفسي الى مر الليالي
فمالي لست مشغولا بنفسـ
لقد ايقنت اني غير بـ
وما لي عبرة في ذكر قـ
ساقنح ما بقيت بقوت يـ
تعالى الله يا سلم بن عمرو
هب الدنيا تساق اليك عفـ
فما ترجو بشيء ليس يبقـ
وحقك كل ذا يفنى سريعا

(١) الديوان ٢٨

(٢) الديوان ٤٦ - ٤٧

(٣) الديوان ٢٠٥ - ٢٠٧

(٥) - اللذة المنغصة

نَعَص الموت كل لذة عيشي
عجبا انه اذا مات ميتت
حيثما وجه امرؤ ليفوت ال
انما الشيب لابن آدم نـسع
من تمنى المنى فاغرق فيها
ما أذل العقل في اعين النسا
انما تنظر العيون من النسا

م

يا لقومي للموت ما اوحاه
صد عنه حبيبه وجفاه
موت فالموت واقف بحذاه
قيام في عارضيه ثم نعاه
مات قبل ان ينال مناه
من لاقلاله وما اقمناه
من الى من ترجوه او تخشاه (١)

(٦) - خداع الدنيا

الا كل مولود فللموت يولد
تجرد من الدنيا فانك انما
وافضل شيء نلت منها فانه
وكم من عزيز اعقب الدهر غبوة
فلا تحمد الدنيا ولكن ذمها

ولست ارى حيا لشيء يخلد
سقطت الى الدنيا وانت مجرد
متاع قليل يضمحل وينفد
فاصبح محروما وقد كان يحسد
وما بال شيء ذمه الله يحمد (٢)

(٧) - عيش لله

ركنا الى الدنيا دنئة ضلوة
وانا لنرمي كل يوم بعبوة
نسر بدار اورثتنا تضاغتنا
اذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى
اخي كن على يأس من الناس كلهم

وكشفت الاطماع منا المساويها
نراها فما تزداد الا تعاديها
عليها ودار اورثتنا تعاديها
قلوب عريانا وان كان كاسيها
جميعا وكن ما عشت لله راجيها (٣)

(١) الديوان ١١ - ١٢

(٢) الديوان ٧٤

(٣) الديوان ٢١٩ - ٣٠١

(٨) - ضلال المنس

- كأنسي خلقت للبقاء مخلدا
الى الموت الا ان يكون لمن ثوى
حسنت المنس يا موت حسنا مبرحا
ومزقتنا يا موت كل ممزق
الا يا طويل السهو اصبحت ساهيا
انسي كل يوم نحن نلقى جنازة
وفي كل يوم منك نرثي لمعول
الا ايها الباني لغير بلاغفة
الا لزوال العمر اصبحت بانيسا
كأنك قد وليت عن كل ما ترى
- وان مدة الدنيا له ليس ثانيا
من الخلق طرا حيثما كان لاقيا
وعلمت يا موت البكاء البواكيا
وعرفتنا يا موت منك الداهيا
واصبحت مخترا واصبحت لاهيا
وفي كل يوم منك نسمع ناديا
وفي كل يوم نحن نسعد باليا
الا لخراب الدهر اصبحت بانيسا
واصبحت مختالا فخورا مباهيا
وخلقت من خلفه عنك ساليا (١)

غدر الدهر

(٩) - تقلب الدهر

- وما الدهر يوما واحدا في اختلافه
وما هو الا يوم يؤس وشدة
وما كل ما لم ارج احرم نفعه
ايا عجبا للدهر لا بل لرهبه
وشتت ريب الدهر كل جماعفة
اذا ما خليلي حل في برزخ البلسي
- وما كل ايام القس بسوا
ويم سرور مرة ورخا
وما كل ما ارجوه اهل رجاء
يخرم ريب الدهر كل اخاء
وكدر ريب الدهر كل صفا
فحسبي به نأيا وبعد لقاء (٢)

(١٠) - لثم الدهر

- وانك يا زمان لذو صروف
وما لي لست احلب منك شطرا
- وانك يا زمان لذو انقلاب
فاحمد منك عاقبة الحلاب

بعثت الهم لي من كل باب
 كحلسم النيم أو ظل السحاب
 وليس يعود أو لمع السراب
 وأرجلهم جميعاً في الركاب
 بما أسدى غداً دار الثواب (١)

وما لي لا الح عليك إلا
 أراك وإن طلبت بكل وجه
 أو الأمس الذي وليّ ذهاباً
 وهذا الخلق منك على وفاً
 وموعد كل ذي عمل وسعي

(١١) - عبر الدهر

والضايح تبديد كل العباد
 مثل ما نلنا من ثمود وعاد
 هنّ أفنين من مضى من أباد
 أهل القباب والأطواد
 سان أرباب فارس والسواد
 ن المنيع الأعراض والأجناد
 بسططانه مذل الأعادي
 ن وهامان أين ذوالاوتاد
 ودليل على سبيل الرشاد
 ثم لم يصدروا عن الأبراد
 تزود لذاك من خير زاد
 بالضايح فكان على استعداد
 أنسيت الفراق للولاد ؟
 بين ذل ووحشة وانفـراه
 الموت والموت رائح ثم غاد
 عنك لو قد أذقت طعم افتقادي
 كنت ميت الرقاد حي السهاد (٣)

الضايح تجوس كل البلاد
 لتتالن من قرون أراها
 هنّ أفنين من مضى من نزار
 هل تذكرت من خلا من بني الأصفر م
 هل تذكرت من خلا من بني سا
 أين داود أين سليمان
 راكب الريح قاهر الجن والأنس م
 أين نمرود وابنه أين قارو
 أن في ذكرهم لنا لا عتبروا
 وردوا كلهم حياض الضايح
 أيها العزمع الرحيل عن الدنيا م
 لتتالنك الليالي وشيكها
 اتناسيت أم نسيت الضايح
 أنسيت القبور إذ أنت فيها
 كيف الهو وكيف اسلو وأنسى م
 أيها الواصلي سترفض وصلبي
 يا طويل الرقاد لو كنت تدري

(١٢) - ريب الدهر

معطله منازل
 أعاليه أسافل

لمن طليل أسائل
 غداة رأيتك تعبي

(١) الديوان ٢٤

(٢) الديوان ٢٥ - ٢٧

وكنت اراه مأهولا
 وكل لا عتصاف الدهر
 وما من مسللك الا
 فيصرع من يمارعه
 ينازل من يهزم به
 واحيانا يؤخره
 كذاك به اذا نزلت

ولكن باد آهله
 معرضة مقاتله
 ورب الدهر شامله
 وينضل من يناضله
 واحيانا يخاطله
 وتارات يعاجله
 على قوم كلاكله (١)

جب روت الموت

(١٣) - لدوا للموت

لدو للموت واينوا للخراب
 لمن نبني ونحن الى تراب
 الا يا موت لم ار منك بدا
 كأنك قد هجمت على مشيبي

فلكم يصير الى تباب
 نصير كما خلقنا من تراب
 اتيت وما تحيف وما تحابي
 كما هجم المشيب على شبابي (٢)

(١٤) - المصير الحتم

انا لفي دار تنغيص وتكيد
 لقد عرفناك يا دنيا بمعرفة
 نرى الليالي والايام مسرعة
 جد الرحيل عن الدنيا وساكنها
 يا نفس للموت بي عين موكلية
 ان كانت الدار ليست لي بباقية
 لم يكسب الدهر يوما من مسرته
 ولي من الموت يوما (٣) لا دفاع له
 الحمد لله كل الخلق منتقص
 وكلما ولدته الوالدات السي

دار تنادي بها ايامها بيدي
 بانث لنا فانقصي ان شئت اوزيدي
 فينا وفيك بتفريق وتبعيد
 يرجو الخلود وما هي دار تخليد
 في كل وجه فرغسي عنه اوحيد
 فما عنائي بتاسيس وتشبيد
 الا جرى منه مكرهه بتجريد
 لو قد اتاني لقد ضلت اقاليدي
 مصرف بين خذلان وتأبيد
 موت تؤديه ساعات الموالييد (٤)

(١) الديوان ٢٢٧ - ٢٢٨

(٢) الديوان ٢٣

(٣) واضح ان في الامر خطأ نسخيا ، فهي في اعتقادنا محرفة عن يوم (لحالة الرفع)

(٤) الديوان ٨٤ - ٨٥

(١٥) - نداء الموت

كل يوم نزيدة التهايبا
واكتئاب قد يسوق اكتئابا
لا ولا دام له ما استطابا
مستشيطا قد ازل الرقابا
آخر الايام الا ذهبا
مثلا ينفي المشيب الشبابا
فألهما الا اذى وعذابا
اذ دعاه يومه فاجابا
يترك الدور خرابا يبابا
اي حي مات فيها فآببا
قبلنا لم يسلبوه استلابا
احملوا الزاد وشهدوا الركابا (١)

نار هذا الموت في الناس طرا
انما الدنيا بلاء وكهد
ما استطاب العيش فيها حكيم
انت في دار ترى الموت فيها
ابت الدنيا على كل حي
انما تنفي الحياة المنايا
ما ارى الدنيا على كل حي
بينما الانسان حي قسوى
غير ان الموت شيء جليل
اي غيش دام فيها لحى
اي ملك كان فيها لقى
انما داعي المنايا ينادى

(١٦) - بداية النهاية

ويعيا بقاء الموت كل دواء
وللنقص تنمو كل ذات نماء
حبوه ولا جادوا له ببذاء
يدوم النما فيها ودار شقاء
وكن بين خوف منهما ورجاء
ولكن كساء الله تسوب غطاء (٢)

يعزّز دفاع الموت عن كل حيلة
ونفس الفتى مسرورة بنمائه
وكم من مفدى مات لم ير أهله
امامك يا نومان دار سعادة
خلقت لاحدى الغائتين فلا تنسم
وفي الناس شر لو بدوا ما تعاشرنا

(١٧) - رهبة الحساب

كأنني قد امننت من العقاب
فاني لا افيق الى الصواب
فما عذرى هناك وما جوابي
الحساب اذا دعيت الى الحساب

تقلدت العظام من البرايا
ومهما دمت في الدنيا حريصا
سأسأل عن امورك كنت فيها
باية حجة احتج بي

كتابي حين انظر في كتابي
واما ان اخلد في عذابي (١)

هما امران يوضح عنهما لي
فاما ان اخلد في نعيم

ضلال الانسان

(١٨) - العبرة الخالدة

فكان فيهن الصاب والسلع
ولا علس ما ولى به جزع
قبلي بقوم فما ترى صنعوا
كان لهم والايام والجمع
شيئا من الثروة التي جمعوا
اعظم نفعاً من الذى ودعوا
هول حساب عليه يجتمعوا (٢)
ويحصد الزارعون ما زرعوا (٣)

لقد حلبت الزمان اشطره
ما لي بما قد اتى به فزع
لله در الدنى لقد لعبت
بادوا ووفتهم الاهللة ما
اثروا فلم يدخلوا قبورهم
وكان ما قدموا لانفسهم
غدا يُنادى من القبور السى
غدا تُوقى النفوس ما كسبت

(١٩) - الرحلة الكبرى

تدرى وتنعاك حين تطلع
حتى متى انت بالصبا ولسع
بادوا جميعاً وما باد ما جمعوا
قبلي الى التراب الذى صنعوا
بؤساً لهم اى موقع وقعوا
الدنيا فعنها بالموت ينقطع (٤)

الشمس تنعاك حين تغرب لـ
حتى متى انت لاعب اشعر
ان الملوك الاولى مضوا سلفاً
يا ليت شعري عن الذين مضوا
بؤساً لهم اى منزل نزلوا
الحمد لله كل من سكن

(١) الديوان ٢٤

(٢) ظاهر في ذلك اللحن ، ولا نستبعد ان تكون تحريفاً عن " يجتمع " المضارع المجهول

(٣) الديوان ١٥٩ - ١٦٠

(٤) الديوان ١٤٨

(٢٠) - عز القناعة

أليس لي بالكفاف متسع
لناس جميعا لو انهم قنعوا
اراهم في الغي قد رتعوا
لكل حي من كأسها جرع
والموت ورد له ومنتجع (١)

حتى متى يستفزني الطمع
ما افضل الصبر والقناعة
واخذع الليل والنهار لا قوام
اما المنايا فغير غافلة
اي لبيب تصفو الحياة لسه

(٢١) - الحرص القاتل

ما اجتمع الحرص قط والسورع
لا تسعوا في الذي به قنعوا
لكنه ما يريد ما يستمع
هل لك في ما حلفت منتفع
الساعات عن نفسه فينخدع
الموت بها حصد كل ما زرعوا
والصبر على كل حادث يقع
يا حبذا القانعون ما قنعوا
يذهب منه ما ليس يرتجع
ضاق ولم يتسع لها الجرع (٢)

الحرص لهم ومثله الطمع
لو قنع الناس بالكفاف اذا
للمرء فيما يقيمه سعنة
يا حالب الدهر دهر اشطره
يا عجباً لامرئ يخادعه
الناس في زرع نسلهم ويد
ما شرف المرء كالقناعة
لم يزل القانعون اشرفنا
للمرء في كل طرفة حدث
من ضاق بالصبر عن مصيبتيه

(٢٢) - عظة الايام

ولم تأل حبا لمرضاتها
وصعرت اكبر زلاتها
سلكت بهم عن بنياتها
تطلعت عنها لا فاتها

رضيت لنفسك سواتها
فحسنت اقبح اعمالها
وكم من سبيل لاهل الصبا
واي الدواعي دواعي الهوى

(١) الديوان ١٥٩

(٢) الديوان ١٤٧ - ١٤٨

(٢٦) - نعمة الفساد

يا خليلي لا اذم زفانسي
 لست احصي كم من اخ كان لي م
 لم اجده مواتيا فتصدقت م
 ليت حظي منه ومن مثله ان
 احمد الله كيف قد فسد الناس م

غير انسي اذم اهل زمانسي
 منهم قليل الوفاء حلوا اللسان
 بحظي منه على الشيطان
 لا تراه عيني وان لا يراني
 وقّل الوفاء في الاخوان (١)

(٢٧) - التيه من الجهل

حتى متى ذوالتيه في تيهه
 يتيه اهل التيه من جهلهم
 من طلب العز ليقبى به
 لم يعتصم بالله من خلقه

اصلحه الله وعافاه
 وهم يموتون وان تاهوا
 فان عز المرء تقواه
 من ليس يرجوه ويخشاه (٢)

(٢٨) - حياتان

عمرا لفتى ذكره لا طول مدته
 فاحي ذكرك بالا حسان تفعلسه

وموته خزيه لا يومه الداني
 يكن كذلك في الدنيا حياتان (٣)

(٢٩) - خاتمة المطاف

رغيف خبز يا بــــــــــــس
 وكوز ماء بــــــــــــارد
 وغرفة ضيقة
 او مسجد بمعــــــــــــزل
 تدرس فيه دفتــــــــــــرا
 معتبرا بمن مضــــــــــــى

تأكله في زاويــــــــــــه
 تشربه من صافيــــــــــــه
 نفسك فيها خالــــــــــــيه
 عن السورى في ناحيــــــــــــه
 مستندا بســــــــــــاره
 من القرون الخالــــــــــــيه

(١) الديوان ٢٦٠

(٢) الديوان ١٢

(٣) الديوان ٢٥٩

- | | |
|--|--|
| <p>فسيء القصور العالِيه
 تهللي بنار حاميه
 مخبرة بحالِيه
 تلك لعمري كافيه
 يدعي ابا العتاهيه (١)</p> | <p>خير من الساعات فسي
 تعقبها عقوبة
 فهذه وصيتي
 طوبى لمن يسمعه
 فاسمع لنصح مشفق</p> |
|--|--|

نعمة التقوى

(٣٠) - زاه التقوى

- | | |
|---|--|
| <p>اسمعي ثم عسي وعسي
 فاحذري مثل مصرعي
 في ديار التزعزع
 فخذى منه او دعسي (٢)</p> | <p>اذن حسي تسمعي
 انا رهن بمضجعي
 عشت تسعين حجة
 ليس زاه سوى التقى</p> |
|---|--|

(٣١) - القصد والزهد

- | | |
|--|--|
| <p>خشي الآله وعيشه قصد
 لله كل فعالة رشده
 لا عرض يشغله ولا نقده
 ما ان له في غيرها وكده
 هزل المخافة عنده جده
 ما ليس من اتيانه بده
 واختار ما فيه له الخلد
 لا يشتكي ان نابه جهده
 ما العيش الا القصد والزهد (٣)</p> | <p>ان القريرة عينه عبده
 عبده قليل النوم مجتهد
 نزه عن الدنيا واطلها
 حذر حمي الكدار مهجته
 مستجمل في الله محتقر
 متذلل لله مرتقب
 رفض الحياة على حلاوتها
 يكفيه ما بلغ المحل به
 فاشدد يدك ان ظفرت به</p> |
|--|--|

(١) الديوان ٣٠٤ - ٣٠٥

(٢) الديوان ١٦٠

(٣) الديوان ٧٩ - ٨٠

(٣٢) - صفوة المغبون

اتق الله بحمدك
ايها العبد الى كم
كم وكما عاهدت مولا
اعط مولاك كما تطلب
م

قاصدا او بعض جهـدك
تشتري الخي برشدك
ك قلم توف بعهدك
من طاعة رسـك (١)

(٣٣) - حسبك الله

الا الى الله تصير الامور
ان امرا يصفو له عيشه
نحن بنو الارض وسكانها
لا والذي امسيت عبدا له
حتى متى انت حريص على
اذا عرفت الله فاقنع به
تبارك الله وسبحانه

ما انت يا دنياى الا غرور
تغافل عما تجن القبور
منها خلقنا واليهـا نصير
ما دام في الدنيا لحي سرور
كثير ما يكفيك عنه اليسير
فعندك الحظ الجزيل الكثير
من جهل الله فذاك الفقير (٢)

(٣٤) - يرى ولا يرى

لا رب ارجوه لي سواك
انت الذى لم تنزل خفيا
ان انت لم تهدنا ظلمنا
احط علما بجميعنا

ان لم يخيب سعي من رجاك
لم يبلغ الرهم منتهاك
يا رب ان الهدى هداك
انت ترانا ولا تراك (٣)

(٣٥) - البلاء الجميل

تعالى الواحد الصمد الجليل
هو الملك العزيز وكل شيء
وما من مذهب الا اليه

وحاشى ان يكون له عديل
سواء فهو منتقص ذليل
وان سبيله له والسبيل

(١) الديوان ٨٦

(٢) الديوان ١١٢ - ١١٨

(٣) الديوان ١٨١ - ١٨٢

وان عطاءه لهـ هو الجزيل
 وكل بلائه حسن جميل
 ليبلغه فمحصر كلليل
 ومن قد غره الامل الطويل
 وان مقامنا فيها قليل (١)

وان له لمناً ليس محصى
 وان عطاءه عدل علينا
 وكل مفوه اتى عليه
 ايا من قد تهاون بالمنايا
 الم تر انما الدنيا غرور

(٢٦) - سقيت قبور الصالحين

سقيت قبور الصالحين ديم
 ما كان اثبتته لنا ورسيم
 وقضى بذاك لنفسه وحكيم (٢)

ماذا يفوز الصالحون به
 لولا بقايا الصالحين عفا
 سبحان من سقت مشيته

(٢٧) - فخر التقى

وانت بما تخفي الصدور عليم
 ارى الحلم لم يندم عليه حليم
 تسامى بها عند الفخار كريم
 خرجت من الدنيا وانت سليم
 وانت على ما لا يحب مقيم
 تبارك ربي انه لرحيم (٣)

ايا رب يا ذا العرش انت حكمي
 فيا رب هب لي من ذلك حلما فاني
 الا ان تقوى الله اكبر نسبة
 اذا ما اجتنبت الناس الا على التقى
 اراك امراً ترجو من الله عفوه
 فحتى متى يعصى ويعفو الى متى

(٢٨) - اليه المصير

واى بنى آدم خالد
 وكل الى ربه عائد
 ام كيف يججده الجاحد
 وفي كل تسكينه شاهد
 تدل على انه الواحد (٤)

الا اننا كلنا بائد
 ويدوهم كان من ربهم
 فيا عجباً كيف يعصي الاله
 والله في كل تحريكه
 وفي كل شيء له آية

(١) الديوان ٢٠١ - ٢٠٢

(٢) الديوان ٢٣٧ - ٢٣٨

(٣) الديوان ٢٤١ - ٢٤٢

(٤) الديوان ٦٩ - ٧٠

(٣٩) - القريب البعيد

لك الحمد يا ذا العرش يا خير معبود
شهدنا لك اللهم ان لست محدثا
وانك معروف ولست بموصوف
وانك رب لا تنزال ولم تنزل

ويا خير مسؤول ويا خير محمود
ولكنك المولى ولست بمجود
وانك موجود ولست بمجدود
قريبا بعيدا غائبا غير مقبود (١)

(٤٠) - سبحان ربك

سبحان ربك ما اراك تتسبب
سبحان ربك ذي الجلال اما ترى
سبحان ربك كيف يغلبك الهوى
سبحان ربك ما تنزال وفيك عن
سبحان ربك كيف يلتذ امرؤ

والراس منك بشيمه مخسب
نوب الزمان عليك كيف تسبب
سبحانه ان الهوى لغلبب
اصلاح نفسك فترة ونكسب
بالعيش وهو بنفسه مطلبب (٢)

(٤١) - توبه

سبحان علام الغيوب
تعري فروع الانس بي
حتى متى يا نفس تغتر
يا نفس توبي قبل ان
واستغفري لذنوبك
اما الحوادث فالهياح
والموت خلقي واحد
والسعي في طلب التقى
ولقل ما ينجو الفتى

عجبا لتصرف الخطوب
وتجتني ثمر القلوب
ين بالامل الكذوب
لا تستطيعي ان تتوبي
الرحمان غفار الذنوب
بهن دائمة الهبوب
والخلق مختلف الضروب
من خير مكتسب الكسوب
المحمود من لطح العيوب (٣)

(١) الديوان ٢٠

(٢) الديوان ٢٢

(٣) الديوان ٣١

(٤٢) - استغفار

الهسي لا تعذبني فانسى
 وما لي حيلة إلا رجائى
 فكم من زلة لي في البرايا
 اذا فكرت في قُدُسي عليها
 يظن الناس بي خيرا وانسى
 اجن بزهرة الدنيا جنونا
 وبين يدي محتبس ثقيلا
 لو اني صدقت الزهد فيها

مقربالذى قد كان منسى
 وعفوك ان عفوت وحصن ظنسى
 وانت علي ذو فضل ومن
 عضضت اناملسى وقرعت سنسى
 لشر الناس ان لم تعرف عنسى
 وانسى العمر فيها بالتفنسى
 كأنسى قد دعيت له كأنسى
 قلبت لاهلها ظهر المجن (١)

x x x x
 x x
 x

مصادر البحث ومراجعته

افتضتنا الامانة للعلم ان نورد اسما جميع الكتب التي كانت لنا ذات عون في هذا البحث . واذا كان بينها ما لم يشر اليه قبل الآن في هوامش البحث ، فلانه لم يكن اكثر من مرشد الى مصادر او مراجع اعتمدنا عليها ، او كان ذا صبغة عامة لا يتميز بها وحده كأن يؤرخ للعصر مثلا .

x x x x

x

المصادر

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - الابشيهي ، شهاب الدين احمد ، المستطرف في كل فن مستظرف ، ج ١ ، دار الطباعة ببولاق ، القاهرة ١٢٧٢ هـ .
- ٣ - ابن ابي الحديد ، عز الدين ، شرح نهج البلاغة ، ج ٤ ، مطبعة دار الكتب العربية ، القاهرة ١٣٢٩ هـ .
- ٤ - ابن ابي اصيبعة ، ابو العباس احمد ، عيون الانبياء في طبقات الاطباء ، ج ١ ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٨٨٢ هـ .
- ٥ - ابن ابي يعقوب ، احمد ، (ابن واضح) ، تاريخ يعقوبي ، ج ٣ ، مطبعة الغرى ، النجف ١٣٥٨ هـ .
- ٦ - ابن الاثير ، عز الدين ابو الحسن علي ، الكامل في التاريخ ، ج ٦ ، ليدن ١٨٧١ .
- ٧ - ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن ، مناقب الامام احمد بن حنبل ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٩ هـ .
- ٨ - ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة ، المطبعة الادبية ، بيروت ١٨٧٩ .
- ٩ - ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد ، وفيات الاعيان وانباء ابناؤ الزمان ، ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٤٨ / ١٩٥٠ .

- ١٠ - ابن ابي سلمى ، زهير ، الديوان ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٤ .
- ١١ - ابن ابي الصلت ، امية ، الديوان ، المطبعة الوطنية ، بيروت ١٩٣٤ .
- ١٢ - ابن عبد ربه ، وشهاب الدين احمد ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ٤ ، ٦ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٠ / ١٩٤٩ .
- ١٣ - ابن قتيبة ، ابو عبدالله محمد بن مسلم ، تأويل مختلف الحديث ، مطبعة كردستان العلمية ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .
- ١٤ - ابن قتيبة ، ابو عبدالله محمد بن مسلم ، الشعر والشعراء ، ج ٢ ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٦٦ هـ .
- ١٥ - ابن قتيبة ، ابو عبدالله محمد بن مسلم ، عيون الاخبار ، ج ١ ، ٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٥ / ١٩٣٠ .
- ١٦ - ابن قتيبة ، ابو عبدالله محمد بن مسلم ، المعارف ، غوتنغن ١٨٥٠ .
- ١٧ - ابن قميصة ، عمرو ، الديوان ، مطبعة جامعة كايمبرج ، كايمبرج ١٩١٩ .
- ١٨ - ابن قيم الجوزية ، محمد بن ابي بكر ، مختصر الصواعق المرسلية على الجهمية والمعتلة ، ج ٢ ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .
- ١٩ - ابن كثير ، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل ، البداية والنهاية في التاريخ ، ج ١٠ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٨ / ١٣٥٨ هـ .
- ٢٠ - ابن المعتز ، ابو العباس عبدالله ، طبقات الشعراء ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ٢١ - ابن منظور ، ابو الفضل محمد بن مكرم ، لسان العرب ، مادة : شعب .
- ٢٢ - ابن نباتة ، ابو بكر محمد ، شرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ، المطبعة الميرية ، القاهرة ١٢٧٨ هـ .
- ٢٣ - ابن النديم ، ابو الفرج محمد بن اسحق ، الفهرست ، ليسانج ١٨٧١ / ١٨٧٢ .
- ٢٤ - ابو العتاهية ، الانوار الزاهية في ديوان ابي العتاهية ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٨٨٦ .
- ٢٥ - الاصبهاني ، الراغب ابن محمد القاسم حسين ، محاضرات الادباء ومحاورات البلغاء والشعراء ، ج ١ ، مطبعة المويلحي ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- ٢٦ - الاصطخرى ، ابو اسحق ابراهيم ، مسالك الممالك ، ليدن ١٩٢٧ .
- ٢٧ - الاصفهاني ، ابو الفرج ، الاغاني ، ج ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١٢ (دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٩٢٧ / ١٩٥٠) ج ١٤ ، ١٥ ، ١٦ (بولاق ، القاهرة - ١٢٨٥ هـ) .

- ٢٨ - البحتري ، ابو عبادة الوليد بن عبيد ، الحماسة ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٩٢٩
- ٢٩ - البخارى ، ابو عبدالله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخارى ، ج ٧ ، دار الطباعة ، القاهرة ١٣١٥ هـ .
- ٣٠ - البغدادي ، ابو منصور عبد القاهر ، الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، ١٩١٠ . ج ٤ ق ٢
- ٣١ - البلاذري ، احمد بن يحيى ، انساب الاشراف ، مطبعة الجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٣٨ .
- ٣٢ - الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ٣ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٨ / ١٩٥٠ .
- ٣٣ - الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ، التاج في اخلاق الملوك ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩١٤ .
- ٣٤ - الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ، الحيوان ، ج ٢ ، مطبعة البايي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- ٣٥ - الحصري ، ابو اسحق ابراهيم بن علي ، زهر الآداب وثمر الالباب ، ج ٢ ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٩٢٥ .
- ٣٦ - الحنبلي ، ابن العماد ابو الفلاح عبد الحسي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ج ٢ ، القاهرة ١٣٥٠ هـ .
- ٣٧ - الخطيب البغدادي ، احمد بن علي ، تاريخ بغداد او مدينة السلام ، ج ١ ، ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٧ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٣١ .
- ٣٨ - الدميري ، كمال الدين محمد بن موسى ، حياة الحيوان الكبرى ، ج ١ ، المطبعة الميمنية ، القاهرة ١٣٠٥ هـ .
- ٣٩ - السبكي ، عبد الوهاب ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٣ ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .
- ٤٠ - السراج ، ابو نصر عبدالله ، اللمع في التصوف ، ليدن ١٩١٤ .
- ٤١ - الشهرستاني ، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل ، ج ١ ، ٢ ، مطبعة حجازي ، القاهرة ١٩٤٨ / ١٩٤٩ .
- ٤٢ - الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ١٠ ، ١١ ، ليدن ١٨٧٩ / ١٩٠١ .
- ٤٣ - العباسي ، ابو الفتح عبد الرحيم ، معاهد التنصيح على شواهد التلخيص ، ج ٢ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٤٧ .

- ٤٤ - القشيري ، ابو القاسم عبد الكريم ، الرسالة القشيرية ، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى ، القاهرة ١٣٣٠ هـ .
- ٤٥ - القلقشندي ، ابو العباس احمد ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩١٣ .
- ٤٦ - الكبيسي ، محمد بن شاكر بن احمد ، فوات الوفيات ، ج ١ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥١ .
- ٤٧ - المرزباني ، ابو عبيد الله محمد بن عمران ، الموشح في ما أخذ العلماء على الشعراء ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ .
- ٤٨ - المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٦ ، ٧ ، ٨ ، المطبعة الوطنية ، باريس ١٨٦١ / ١٨٧٦ .
- ٤٩ - المعري ، ابو العلاء احمد ، لزوم ما لا يلزم ، ج ١ ، مطبعة التوفيق ، القاهرة ١٩٢٤ .
- ٥٠ - المقدسي ، شمس الدين احمد ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٠٦ .
- ٥١ - النواجي ، شمس الدين محمد بن الحسن ، حلبة الكيوت في الادب والنوادير المتعلقة بالخمريات ، مطبعة ادارة الوطن ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .
- ٥٢ - الوشاء ، ابو الطيب محمد ، الموشى ، ج ٢ ، ليدن ١٣٠٢ هـ .
- ٥٣ - اليافعي ، ابو محمد عبد الله بن اسعد ، مرآة الجنان وعبر اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، ج ٢ ، مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيد رآباد ، حيدرآباد ١٣٣٨ هـ .
- ٥٤ - ياقوت الرومي ، شهاب الدين ، معجم الادباء ، ج ١ ، ٤ ، ١١ ، مطبعة دار المأمون ، القاهرة ١٩٣٦ / ١٩٣٨ .
- ٥٥ - ياقوت الرومي ، شهاب الدين ، معجم البلدان ، ج ١ ، ٣ ، وليسيغ ١٨٦٦ / ١٨٧٠ .

المراجعــــــــــــــــع

- ١ - امين ، احمد ، ومحمود ، زكي نجيب ، قصة الفلسفة اليونانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٩ .
- ٢ - امين ، احمد ، ضحى الاسلام ، ج ١ ، (الطبعة الرابعة ١٩٤٦) ، ج ٣ (الطبعة الرابعة ١٩٤٩) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .
- ٣ - بدوي ، عبد الرحمن ، من تاريخ الالحاد في الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٥ .

- ٤ - يرانق ، محمد احمد ، ابوالعناهية ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ٥ - البستاني ، فؤاد افرام ، الروائع عدد ١٠ ، ابوالعناهية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٢٧ .
- ٦ - جار الله ، زهدى حسن ، المعتزلة ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ٧ - جبور ، جبرائيل ، ابن عبد رسه وعقده ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٣ .
- ٨ - جبور ، جبرائيل ، عمر ابن ابي ربيعة ، ج ١ (عصر ابن ابي ربيعة) المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٥ .
- ٩ - حتي ، فيليب وجرجي ادورد ، وجبور جبرائيل ، تاريخ العرب ، ج ٢ (مطول) بيروت ، مطبعة الكشاف ، ١٩٥٣ .
- ١٠ - حسن ، حسن ابراهيم ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج ٢ ، مطبعة الشيكشي ، القاهرة ١٩٤٨ .
- ١١ - خلف الله ، محمد ، دراسات في الادب الاسلامي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ١٢ - دى بورا ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي ابوريدة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٤ .
- ١٣ - زيدان ، جرجي ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٢ (طبعة سنة ١٩٤٧) ج ٣ (طبعة سنة ١٩٣١) ، مطبعة الهلال ، القاهرة .
- ١٤ - شريف ، محمد بديع ، الصراع بين الموالي والعرب ، دار الكاتب العربي بمصر ، القاهرة ١٩٥٤ .
- ١٥ - الصعدي ، عبد المتعال ، ابوالعناهية الشاعر العالمي ، مطبعة الشرق الاسلامية ، القاهرة ١٩٣٩ .
- ١٦ - عبد النور ، جبور ، التصوف عند العرب ، بيروت ١٩٣٨ .
- ١٧ - العقاد ، عباس محمود ، الفلسفة القرآنية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ١٨ - العمر ، قدرى ، من الادب ، ج ١ ، دمشق ؟ سنة ؟
- ١٩ - فروخ ، عمر ، التصوف في الاسلام ، مطبعة الكشاف ، بيروت ١٩٤٧ .
- ٢٠ - كريم ، فون ، الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية ، ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٤٧ .

- ٢١ - لا يوم ، جول ، تفصيل آيات القرآن الحكيم ، مطبعة عيسى الباي الحلبي وشركاه ،
(ترجمة محمد فراد عبد الباقي) ، مصر ١٩٢٤ .
- ٢٢ - مبارك ، زكي ، التصوف الاسلامي ، ج ١ ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٣٨ .
- ٢٣ - المقدسي ، انيس ، امراء الشعر في العصر العباسي ، المطبعة الاميركانية ،
بيروت ١٩٤٦ .
- ٢٤ - نيكولسون ، رينولد ، في التصوف الاسلامي وتاريخه ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، (ترجمة " ابو العلا عفيفي ") ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ٢٥ - الوهابي ، خلدون ، مراجع وتراجم الادباء العرب (مادة : ابوالعناهية) ،
الشركة الاسلامية للطباعة والنشر ، بغداد ١٩٥٦ .
- ٢٦ - اليازجي ، كمال ، معالم الفكر العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٤ .

المنشورات الدورية

- ١ - عباس ، عبد الحلیم ، " ابوالعناهية " ، مجلة الرسالة ، صفحة ١٣٠٦ ، العدد
٥٧ ، سنة ١٩٣٤ .
- ٢ - النابلسي ، سليمان فارس ، " التصوف الاسلامي " ، مجلة الرسالة ، صفحة
٩٨ ، العدد ٨١ ، سنة ١٩٣٥ .

المراجع الاجنبية :

- 1°/ Breckelmann, Carl , Geschichte der Arabischen Litteratur,
V. 1., Weimar , 1899 (Abul Atahiya) -
- 2°/ Breckelmann, Carl , Geschichte der Arabischen Litteratur ,
Sup. V. 1. Leiden , 1937 (Abul Atahiya) -
- 3°/ Encyclopaedia Britannica , , " Sufiism " (Anonymous) -
- 4°/ Oestrup , J., " Ab'ul-'Atahiya " , The Encyclopaedia of Islam .
- 5°/ Nicholson , R., " Ascetism-Muslâm " , Encyclopaedia of Religion
and Ethics .
- 6°/ Nicholson, Reynold , A Literary History of the Arabs ,
The University Press , Cambridge 1953.

الفهرست

١ (ابو العتاهية واحوال عصره)
١ الفصل الاول - عوامل التطور في الحياة العباسية
١٣ الفصل الثاني - مظاهر التطور في الحياة العباسية
٣٦ الردة الروحية
٤٤ الفصل الثالث - ابو العتاهية : معالم شخصية
٤٤ نسبه ونشأته
٤٦ اسرته
٤٨ عقيدته
٥٤ شعره وشاعريته
٥٨ حبه
٦٦ زهده وآخر امره
٦٧ وفاته
٧١ (معالم الزهد في شعراي العتاهية)
٧١ الفصل الاول - الزهد قبل ابي العتاهية
٧١ النزعة الزهدية قبل الاسلام
٧٦ النزعة الزهدية في صدر الاسلام
٧٩ تأثر النزعة الزهدية بالتصوف الدخيل
٨٢ الفصل الثاني - مفاسد المجتمع العباسي في شعراي العتاهية
٩٩ الفصل الثالث - الحياة والموت في شعراي العتاهية
١٢٦ الفصل الرابع - ختام القول في زهد ابي العتاهية
١٤٦ (مختارات من زهديات ابي العتاهية)
١٦٢ مصادرا البحث ومراجعته